عبد الواحد لؤلؤة

****

حكايات الزمن الضائع

كذِب الروائيون ولو صدقوا، لكن هذه الصَفَحات ليست رواية

-1-

"عندما أنزلني الشرطي من على أكتاف زملائي في المدرسة"... هكذا بدأ صاحبي أبو غايب حديثه مستذ كراً عقوداً طويلةً من الزمن مرّت علينا معا، ذُقنا فيها كثيراً من المرارة وقليلاً من الحلاوة...عندما أنزلني الشرطي لم أتوقّف عن الهتاف : يسقط الاستعمار، فلسطين عربية، يسقط الخَوَنَة وعُملاء الاستعمار، يسقط وَعد بلفور، يسقط مشروع التقسيم .

إقتادني الشرطي إلى مركز شرطة المدينة. كانت قبضَته الغليظة تشدّد على ساعدي، فلمَحتُ على رسغه وشماً باللون الشذري -الأخضر، وشماً على صوره قلب يخترقه سهمٌ على رأسه إسم "تسواهن". غالبتُ ضحكةً وشهقة. مَن هذه الحسناء التي تسوى جميع الحسناوات؟ وهل خِلقة هذا الشرطي الذي يكاد يثبت نظرية داروين يمكن أن يكون عاشقاً أو يفهم شيئاً عن الحب، وهو في خدمة نظام لا يعرف إلاّ الكراهية، كراهية شباب من أمثالنا يهتفون بحب الوطن ،ويتظاهرون من أجل فلسطين، وينادون بسقوط الاستعمار؟ كان مدير مركز الشرطة أكثر آدميةً، كما بدا لي، ولبضعة من الطلبة المتظاهرين الذين اقتادهم إلى المركز شرطةُ المدينة .
هكذا حدّثني صاحبي أبو غايب الذي عبر الخمسين من العمر "ولم يُكمِل إيمانَه" لذا بقي يستطيب الاسم المحبّب إليه واليّ :أبو غايب.

جاء بعض أولياء الأمور إلى مركز الشرطة، فقد انتشر خبر المظاهرة في الشوارع والأسواق. كان الجميع يبارك ما حدث على الرغم من حرصهم ألاّ يُصيبَ أبناءَهم مكروهٌ من شرطة النظام التي لا يحترمها أحد . ولم يَغِب عن صاحب الوجه المجدور هذا الشعور من جانب المواطنين . ولكنه كان "موظف حكومة" ولم يَجد غير هذا المجال لكسب عيشته . كانت المقابلة بين أولياء الأمور ومدير مركز الشرطة شديدة التوتّر كما وصفها أبو غايب. فالطرفان في مواجهة محرجة. وبعد مناقشة غير طويلة أمر مدير المركز بإطلاق سراح التلامذة، بعد أن أخذ وعداً أن التلامذة "لن يعودوا لمثلها ". وخرج أولياء الأمور مع أبنائهم وهم يتضاحكون.

لكن الشباب ما لبثوا أن "عادوا لمثلها" في اليوم الثاني و ساروا إلى المدرسة الإعدادية ذات التاريخ العريق ، منذ بناها الوالي العثماني بصخور منحوتة من جبال الشمال ، فبقيت صامدةً على الأيّام ، وتخرّج فيها كثير من القادة العسكريين وأصحاب السياسة في عهود مختلفة من تاريخ البلاد. كان زعيمنا هذه المرّة ، كما روى أبو غايب ، طالباً لا يتفوّق في شيء سوى بالكلام المنمّق والصوت العالي، يَسبقه كرشُهُ عند المشي، ولا يشترك في الألعاب الرياضية ، لكنه استطاع إقناعنا ببلاغته الخطابية أن "نقوم بإضراب عن الطعام والاعتصام في المدرسة " التي لا يحجبها عن الشارع الرئيس ذلك السور من المشبّكات الحديد، فيَرانا الرائح والغادي ونحن نرفع شعارات الإضراب عن الطعام والاحتجاج على الحكومة التي لم تقُم بواجبها تجاه قرار التقسيم والمؤامرة على فلسطين . كان "الإضراب عن الطعام " ظاهرة غير مسبوقة في تلك الأيام . وسرعان ما انتشرت الأخبار في مدينة يعرف الناس فيها بعضُهم بعضا . وإذا بالأهل يتجمّعون وراء سياج المدرسة، حاملين الطعام لأولادهم خشية أن "يجوعوا " إذا طال الإضراب. لكن الطلاب رفضوا

تسلّم الطعام ، واستمروا بالهتافات السياسية التي غاب مغزاها عن كثير من الأمّهات . نُمنا تلك الليلة على الأدراج الخشب في الصفوف، أو على الأرض . وفي اليوم التالي جاءنا متصرّف اللواء وألقى فينا خطبة عصماء تمدحُ وطنيّتنا ومشاعرنا القومية، زاعماً أنه تحدّث مع رئيس الوزراء الذي "وعَدَ بتلبية مطالب الشباب". لذا كان علينا أن نفكّ الإضراب والعودة إلى منازلنا واستئناف الدراسة في الغد.
كان علينا أن نستمع إلى "زعيم المظاهرة" قبل فكّ الإضراب، وإذا به يُطلّ علينا من شرفة في الطابق العلوي من المدرسة ونحن متجمّعون في الفِناء الواسع في الطابق الأرضي . بدأ الزعيم بخطبة رنّانة تثني على بطولاتنا في الوقوف بوجه الطغيان، وسارع لإخراج لفّة كباب من تحت معطفه، وبدأ يأكل ، معلناً نهاية الإضراب ، ثم تبعهُ مساعِدهُ بخطبةٍ مطرّزةٍ بعبارات الوطنية والكفاح والعروبة ، و نحن جميعاًنعرف أنّه غير عربي أساساً، لكنّه اتبع خطى الزعيم وأخرج من جعبته "كبّة موصلية "هاتفاً: والآن نأكل!
ضحك صاحبي أبو غايب قائلا : بس نحن بقينا جوعانين وأبطال ! تُرى من أين ومتى جاءت الكبّة والكباب للزعيم ومساعده؟
من يومها قال أبو غايب : أدركتُ أن السياسة والسياسيين ضحكٌ على ذقون المساكين من أمثالنا . هم يأكلون الكبّة والكباب ونحن نبقى جوعانين.

قلت له يا أبا غايب ذكّرتني بقصّة مماثلة شهدتُها في أيام المدرسة الابتدائية. في عام 1939 سمعنا بمقتل الملك غازي بحادث السيارة التي كان يقودها. كناّ أطفالاً ، ومثل أهلنا جميعاً نحبّ الملك غازي. وشاع خبر أن الانكليز هم من دبّر الحادث . ودارت تساؤلات بين من هم أكبر منّا سنًّا ، وكلامٌ في الصحف أن الملك كان يصحب معه في السيارة رجلاً قويّ البنية من أهل أفريقيا ، كان يوم الحادث يجلس في المقعد الخلفي لكنّه

بعد الحادث اختفي ولا يُعرف أين ذهَب ، بل وجدوا عصا ضخمة في السيارة المنكوبة بعد الحادث، كما وجدوا آثار الكدَمات والجروح على رأس الملك ، قيل إنها بسبب اصطدام السيارة بعمود الكهرباء الذي تسبب في الحادث . لكن الصحف بقيت تتساءل :أين ذهب الأفريقي ، وما شكل تلك الكدمات؟ وكثُرت التفسيرات وكلام الصحف التي لم نكن في طفولتنا نقرأها ، بل نسمع كلام الأكبر منّا سنّاً ممن كان يقرأ الصحف ونصدّق كلامهم .

قرّرت إدارات المدارس أن يخرج التلاميذ بمسيرات احتجاجية على غموض أسباب الحادث ، فخرجَت مدرستنا والجميع بملابس الكشافة والرماح الخشب على الأكتاف ، يقودنا معلّم اللغة الانكليزية، ومررنا أمام القنصلية البريطانية، ومعلّمنا يهتف بالإنكليزية : لونگ ليڤ عرب، داون ويذ بريتن : يعيش العرب تسقط بريطانيا . كان القنصل البريطاني وزوجته يُطلاّن من شُرفة دار القنصلية و يلوّحان بالتحية مع الابتسامة . كان ذلك مما أثار غضبنا ، لأننا رأينا الابتسام في غير محلّه . إذن هُم يسخرون منّا ومن مسيرتنا وهتافاتنا. تحمّس أحد التلامذة ورفع رمحَه نحو القنصل وزوجته وأ مطرهما بوابل من الشتائم المقذعة . لكن الابتسامة والتلويح لم يتوقف من شرفة القنصلية.
وبعد يومين سمعنا أن القنصل البريطاني قُتِل في داره ، ودارت الإشاعات حول الحادث و حول هُويّة القاتل . وبعد أسبوع تقدّم شاب يمارس المحاماة "واعترف أنه هو القاتل " البطل، على أمل أن الحكومة "راح تسوّيه وزير." لكن الذي حصل أنه أُلقي في السجن ،لاعترافه بالجريمة، وبعد سنوات قال لنا شقيقه إن الأمر كان مؤامرة ضد المحامي الشاب ،لأنّه لم يَكن في المدينة يوم مقتل القنصل، بل كان في مدينة أخرى يتابع قضايا مزارعين في منطقة نائية . وبعد سنوات في السجن أُطلِقَ سراح البطل القاتل ، وأصبح عضواً في مجلس النوّاب ، ولا أحد يدري كيف،

ولا قدّ م أحدٌ تفسيراً كيف انقلب البطلُ القاتلُ إلى أحد المسبّحين بحَمد الحكومة ورئيسها . ألا تشبه هذه الحكاية ما ذكرتَ لي عن الإضراب عن الطعام والزعيم هناك وطلب الزعامة هنا ؟
ما رأيك في هؤلاء السياسيين في أول الطبخة، أو باعتبار ما سيكون، بعبارة النحويين أو الفقهاء ، لا فَرق .ما رأيك يا أبا غايب؟

أطرق صاحبي هنيهةً ثم أخرج من جيبه "كيس تتن" نصف مَليء بنوع من التبغ الفاخر يَستورده من جبال الشمال "كاكا حَمَه" ثم أخرج من جيبه الآخر القليون المصنوع من الطين الأحمر المفخور، وبدأ طقوس التدخين بإشعال عود كبريت من علبة "أبو ثَثْ. نْجوم" فرجَوته أن يؤجل التدخين لأنني لا أستطيع شم رائحة الدخان ، وبخاصة من ذلك القليون الذي نادراً ما نراه إلاّ بيدِ من هو أكبر سنّاً من أبي غايب ، من بقايا العهد العثماني الذين لا تكتمل قيافتُهم إلاّ مع "الصاية جَبَلي" والفيس داكن الحمرة الأطول من الطربوش اللبناني أو المصري. لم يشأ أبوغايب أن "يكسر خاطري" لأنّي "بعد وَلد" لا أدخن ولا أشرب " اليالطيف" . كيف مصلاوي وماتشرَب؟ قل لي السبب. بلدكُم الموصل فيها أكبر نسبة من المسيحيين بين المدن العراقية. يُقال أكثر من 30 بالمئة، وعندكم معمل عرق مْسَيّح الذي يُعتمد عليه عندنا في البصرة وفي الجنوب. ومع أن الموصل مدينة إسلامية جدّاً و لكن بلا تعصّب، لأنّكم لا تمانعون أن يفتح المسيحيون دكاكين لبيع الخمرة ويشتريها المسلمون بنوع من الحذر. وفي رمضان يغلقون دكاكينهم أو يسدلون على باب الدكان ستارة تصبح في الواقع إعلاناً عن دكان الخمرة. مثل هذه المفارقة نجدها أيضاً في منع فتح المطاعم في رمضان ، لكن صاحب المطعم يغلق الباب نصف إغلاق ويضع عليه قماشة تقول: الدخول من الباب الخلفي. أليسَ هذا هو النفاق بعينه؟ هل ستصبح مثلهم في النفاق لا تدخّن ولا تشرب؟

قلت له سامحك الله يا أباغايب. أنا لا أدخّن لأن رائحة الدخان تؤذيني فأتجنّب صحبة المدخّنين، ولذلك لا أرتاد المقاهي كما يفعل غالبية الشباب الذين يقضون أوقاتاً طويلةً في المقاهي يلعبون الطاولي ودومينو الآزنيف. ذهبتُ عدّة مرّات إلى "قهوة حَيّو الأحدب" لأسأل عن أخبار بعض الأصحاب، ولم أستطع فهمَ التصايح أثناء لعب الآزنيف، وكيف يصيح أحد اللاعبين مبتهجاً : "عَشغة وقفّلت و آزنيف". سألت أحدهم مرّةً وشرح لي ولكني لم أفهم إلى اليوم كيف لرقم عشرة أن يقفّل ! قلتُ في نفسي: لا بأس أضيف هذه إلى الأشياء الكثيرة التي لا أفهمها في تصرّفات شباب اليوم.

أمّاشرب "اليا لطيف " يا أبا غايب فيعود إلى أيّام الطفولة، إذ كان قريباً من دارنا زُقاقٌ مُغلق النهاية إسمه "عَوجَة الخَبّيزين" لأن الزقاق كان يضم عدداً من البيوت الصغيرة يقطنها نساء مُترَمّلات في الغالب ، يكسبن معيشتهن من "خبز التنّوغ" وما أطيبَه من خُبز من تنّور وَقودُه الحطب. في تلك البيوت ولدٌ أو أكثر كانوا يحملون الخبز إلى سوق السراي، حيث لا يدوم طويلاً أمام الزبائن المنتظرين. وفي المساء ترتاح النسوة الخبّازات فيجلسنَ عند الأبواب ويتبادلن الأحاديث الصاخبة مع الخبّازات على أبواب البيوت الأخرى. أما الأولاد فيخرجون إلى الشارع العام يلعبون ويتشاتمون بلغةٍ بذيئة لا تقل بذاءةً عن لغة أهليهم عند أبواب البيوت في "عَوجَة الخَبّيزين". كان أهلنا يمنعونا من الاقتراب من "عجايا الخبّيزين" خِشيَة أن نلتقط منهم الكلام البذيء والتصرّفات الكريهة. وفي هذه الأجواء كانت الخبّازات ينتظرن إلى حوالي الساعة العاشرة ليلاً عندما يعود "شعلان" الرجل الوحيد في الدار الوحيدة في العَوجة التي ليس فيها خبّازات. كان شعلان هذا يعود مخموراً كل ليلة، يتقلّب في مَشيه بين جدارٍ وجدار في بيوت ذلك الزقاق. هنا تبدأ الجالسات على الأبواب بالترحيب بالقادم السكران بأنواع من الغناء الساخر وإطلاق الأصوات البذيئة التي يستجيب إليها شعلان السكران بغناء لايقل بذاءة و فُحشاً.

كانت نساء العَوجة يَجدن في ذلك تَسليتهنّ الوحيدة بعد نهار طويل أمام التنّور. كان هذا ما تفعله الخمرة بالإنسان، وقد انطبعت تلك الصورة في ذهني من أيام الطفولة فكانت أبلغ ما صدّني عن الخمرة ومَن يتعاطاها. وفي الأيّام اللاحقة كنتُ أرى صورة شَعلان في كلّ من يحمل قنينة شراب أو حتى في صور الإعلانات عن الخمر في المجلات أيّام الأعياد!

كان أبو غايب يصغي إليّ طوال الوقت، مُعجَباً بهذا السبب الغريب الذي أبعَدني عن الشراب ، فسألني بوجهٍ لم يفارق ابتسامته الأبلغ من ضحكاته المُجَلجلة عندما يجد ما يدعوه إلى الضحك. سألني بغاية الجدّية، ودون ابتسام : ولكن هل كان للعامل الديني أثَرُهُ في ابتعادك عن الشراب وقد نشأتَ في بيئة دينية مسلمة تحرِّم الخمرة والشراب؟ قلتُ له: هذا العامل جاء متأخِّراً وقد رسّخ في ذهني الصورة المبكرة لكراهية الشرب. فاقتران صورة شعلان السكران كل ليلة وعودته إلى محيط بشري، بعيداً عن مستويات القيم الأخلاقية، هو الذي جمع كراهية الشراب إلى كراهية التصرّفات المقيتة.

والعامل الديني له أثَرُهُ الكبير كذلك. لقد كان بين العوائل المسلمة التي نعرفها بعض من يشرب " اليالطيف". أعرف عائلة فيها الإبن الأكبر "صَنعة سِز" أي لا يعمل ولا يكسب مثل الآخرين، لكنه تعلّم من أصدقاء السوء تعاطي الشراب . كان يغيب في الليالي ويشرب على حساب أصحابه ويعود متأخراً في الليل وأمّه المُترمِّلة في انتظار وقلق. وكان حنانها المَرَضي قد دفعها إلى استبقاء ابنها في الدار ليلاً لتذهب هي وتشتري له "ربعيّة زحلاوي" من دكان أبو جوزيف، في ذلك الزقاق المعتم، ولا أحد يستطيع التعرّف على وجهها المستور، و تعود للدار بالربيعيّة لكي "يتزَقنَب" ابنها و"ينطرح" في داره دون أن يتعرّض لمكروه في صحبة جماعة السوء. وقد استطاعت تلك الأمّ الحفاظ على ذلك "العار" الذي لم يلبث أن انكشف، فصارت الأم وابنها موضع تندّر

الجميع. هذه الصورة زادت في نفوري من الشراب وصَحبه يا أبا غايب .هل ترى في ذلك قلّة نضوج أو تخلّف عن مجاراة "المتمدنين؟ "

وثمّة حكايةٌ أُخرى طريفةٌ عن "الشُرب بالخفية"رواها لي أحد أبناء صفّي في الإبتدائية، أيّام كنّا " نطيّر طيّارات وَرق" من سطح بيتهم العالي. قال: خالي كان يشرب، ويحاول أن يخفي روائح الخمرة بالتِهام كمّية من حَب الهيل قبل العودة إلى الدار مساءً. لكن تلك الحيلة ما كانت تنطلي على خالتي.أما نحن فكنّا نراه في بعض الأماسي جالساً في " قهوة عبّو قديح"في القسم الخلفي عند" حْبوب الماي" حيث تتكدّس قوالب الثلج، وأمامه منضدة صغيرة عليها "إستكان چاي" للتمويه، وإلى جانبه الفيس مقلوباً يغطّي كأس الزحلاوي. هكذا كان الخوف أن يُكتَشَف " السُكرَچيّة" في الموصل في قديم الأيّام، لكن هذه الأيّام " الدني انقلبت" يا أبا غايب! لكن ذلك الخال السُكرَچي كان ميسور الحال. ففي الأربعينات، وخاصّةً أيّام حركة الگيلاني، كان السُكَّر والشاي غالي الثمن بالنسبة لكثيرٍ من الناس، لكن الرجال كان يصعُبُ عليهم التنازل عن قضاء الأماسي في المقاهي،حتى في غياب الشاي في كثيرٍ منها، بسبب غلائه أو ندرتهِ. أمّا خالي فكان يُجَهِّز " قوري چاي" كبير في الدار ويطلُب منّي ومن أخي الصغير حمل"الهديّة"مع "شَكردان" مليان إلى المقهى عندما "ينطفي الضوّ" مساءً. هكذا كان خالي وأصحابه ينعمون بالشاي والسُكّر" المقَصقَص" بينما غالبية الناس الذين قد يحصلون على قليل من الشاي دون السُكَّر يستعملون الزبيب لتحلية الشاي!

ومن طرائف السخرية من "أصحاب الكاس والطاس" قصة تعود إلى زمن العصمَلّي تتردّد للإشارة إلى الإضطراب الذي يتسبّب فيه الشراب فلا يدري الشربان ما يقول أو يفعل. في أيّام الحكم العثماني كانت الرقابة الحكومية شديدة على الخمرة و متعاطيها، تحت شعار "لعَن الله شاربَها

وبائِعها وشاريها ،" وهو قولٌ يُنسَب إلى أحد الفقهاء! كانت دور "أكباريّة البلد" في الموصل القديمة في منأى عن الشك من جانب اليصوانجية‘ أي حرس الليل من الشرطة الذين يخيفون الناس بزعيق صفاراتهم طوال الليل ليثبتوا فى جولاتهم حرصَهم على أمن المواطنين وسلامتهم، ولا بأس إن تسبّبت تلك الصفّارات بإقلاق النائمين والأطفال بخاصة . مرّةً كان جمع من الشباب يعاقرون الراح في دار أحد أكباريّة البلد في ليلةٍ ظلماء مطيرة فاجأهم فيها ثلاثة يصوانجية بصافراتهم وخيزراناتهم، فتقافَزَ السُمّار للهرب والتقط كلٌّ منهم أيّ طربوش وصَلت إليه يدُه، وانطلق هارباً يجري في شوارع المدينة المُضاءةُ بعض أنحائها بفوانيس گاز؛ فاعترض عابرُسبيل بعض أولئك الهاربين سائلا: أشَكو؟ شَكو ؟ فأجاب :" اليصوانجية كبَسونا فتراكضنا. كلّ مِن مِسِك فيس . فيس مِن بغاس مِن ،غاس مِن بفيس مِن؟ ما تعغف ". هذه الصورة رسّخت في الذهن صورة اختلال الفكر والسلوك عند مُتعاطي الشراب. وما يرسخ في ذهن الطفولة، كما تعلم يا أبا غايب، يؤثر في نفسية المرء وسلوكه ،و يصعُب التخلّص منه.

إعتدل أبو غايب من جلسة طويلة وسأ ل :هل عندك قصص غير هذه ؟
طبعاً عندي كثير من القصص يا أبا غايب . لا تتصوَّر أن وجود معمل عَرَق مْسَيّح في بلدنا مع كثرة باعة الخمرة من المسيحيين كان له أثرٌ على علاقاتنا مع الثلاثين بالمئة من المسيحيين في الموصل. كان معنا في المدرسة المتوسطة والثانوية عددٌ كبيرٌ من الطلبة المسيحيين، أحدُهم كان اسمه أحمد والآخر هاشم .هل توجد أسماء أكثر إسلامية من هذه ؟ والذي يجب ألاّ يغيب عن البال أن المسيحيين لم يكونوا أقلّ وطنيةً من المسلمين ولا أقلّ حُباً للعراق والعرب. لا تنسَ يا أبا غايب أن المسيحيينَ عربٌ كذلك، وأنّهم قدموا إلى العراق من بلاد الشام وفلسطين، شأنهم شأ نَ القبائل العربية التي كانت تهاجر طلباً للكلأ والمرعى و مصادر المياه .

وقد استقرّ هؤلاء المسيحيون العرب في المناطق المرتفعة من بلاد الشام والعراق. وهذه المناطق المرتفعة من الهضاب والتلال توجد عَبر نهر دجلة، وقُراهم إلى اليوم ملأى بمزارعين وفلاحين من كل نوع ، ومازالوا يتكلمون السُّريانية المنبثقة عن الآرامية ، لغة السيّد المسيح . ومازالت الآرامية لغة سائدة في<معلولا> إحدى المناطق الجبلية في شمال سوريا الحالية. أمّا نحن العرب المسلمون فقد جاء بنا الخليفة عمر بن الخطاب (رض) من شمال الجزيرة العربية، من قبائل شمَّر بالدرجة الأولى، وكان ذلك في عام 636 عند فتح الجزيرة الفراتية وتدعيم منطقة الموصل بالعرب المسلمين. وقد استقرّ هؤلاء العرب الصحراويون إلى الغرب من نهر دجلة، ولم يَعبروا النهر كما فعل سابقوهم من عرب الشام المسيحيين. ثم بدأ بعض الجَبليّين بعبور دجلة والإستقرار غرب النهر، واختلطوا بالعرب المسلمين، و كان الإختلاط إجتماعياً لم يعرف التعصّب الديني الذي يتحدّثون عنه اليوم.

غصحيحٌ أن كثيراً من الأُسَر المسيحية في الموصل بَنَت لها بيوتاً قريباً من الكنائس في الموصل القديمة، ولكنها كانت متداخلة مع بيوت المسلمين. أنا شخصياً نشأتُ في دار جَدّي القريبة جداً من كنيسة السُّريان، وحولنا عددٌ من بيوت المسيحيين والمسلمين معاً. يُلا صقُ كنيسة السُّريان جامعٌ صغير وغير بعيدٍ منه كنيسة الطاهرة، يقابلها حيّ المكّاوي الذي يقطنه كثيرٌ من الأُسر المسلمة، يُجاورهُم عددٌ من الأُسَر المسيحية. يذكُرُ الموصليّون إلى اليوم حادثة ما حسبوه مَيَلاناً في مئذنة الجامع الكبير، الذي يعود إلى عهد نور الدين زَنكي، أي قبل 800سنة، فاستجاروا بالبنّاء الشهير" عبّودي الطمبوغَجي" الذي خفّ إلى الجامع مع عدد من الأسطوات، وتسلّق المئذنة بمساعدة حبلٍ مجدولٍ قوي، وبعد عددٍ من المحاولات إستطاع إصلاح التصدّع في الجانب العلوي من المئذنة ونزل من تلك العملية الخطرة وقد دفع من جَيبهِ أجور المساعدين والمواد التي استعملها في ترميم التصدّع، وسط تهليل وتكبير المسلمين المتجمّعين. فلمّا

سألوه عن أجوره قال: هذا البيت يعود لِمِن؟ قالوا: هذا بيتُ الله . فقال إذن الله هو الذي سيدفع لي أجوري. ثم انصرَف مع مساعديه وسط المزيد من التهليل والتكبير.

لم نسمع يوماً عن أيّ احتكاك بين المسلمين والمسيحيين، حتى بعد تدهور الأوضاع السياسية في العراق وانتشار الڤايروس السياسي في عقد الأربعينات، ذلك الڤايروس الذي اشتدّ بلاؤه في انتشار الحزبيّة المقيتة في عقد السبعينات وما بعدها. كانت الأحزاب في أيّامها تضمّ مسيحيين ومسلمين معاً، لأنّها كانت أحزاباً غير ملوّثة بالطائفية التي أفسدت النسيج الاجتماعي لاحقاً في العراق عموماً، وفي الموصل كذلك. أذكُرُ مثلاً المرّةَ الأولى والأخيرة في حياتي التي اشتَرَكتُ فيها في انتخابات البرلمان، لأنّي كُنتُ ما أزال تحت تأثير قولِ صاحبي أبو غايب أن السياسةَ ضَحِكٌ على الذقون. كان ذلك عام 1954 يوم ترشّح لانتخابات المجلس النيابي في مدينتا الموصل إثنان من كبار الشخصيّات السياسية: الدكتور عبد الجبّار الجومرد، المسلم، مع شخصيّةٍ مسيحيةٍ من أسرةٍ مطرانية. وقد فازا في الإنتخاب مما يدُلّ على يَقَظَةِ المجتمع الموصلي متَعَدِّد الديانات والأعراق. ولكن في أول اجتماع للمجلس قرّر رئيس الوزراء حلّ ذلك المجلس الذي لم يأتِ على هواه. فصار الجميع يتساءل: أين الدمقراطية وحرّية الإختيار؟

إعتدل أبو غايب من ما حَسِبتُهُ تَهويمةً أو سِنَةً من النوم، فباغَتَني بسؤال مَن لم يكُن ساهياً بل شديد اليقظة والانتباه إلى حديثي المُتطاول. قال لي وعيناه تتّسعان و وَجهُهُ علامة استفهام كبيرة: "ماهو هذا االڤايروس السياسي الذي انتشر في الأربعينات؟" أجَبتُه بلهجة أعادت إلى وجهه ابتسامةً نادرة، ما زلتُ لا أدري إن كانت استخفافاً بذاكرتي الطفولية أو آرائي الغريرة في السياسة. قلتُ له يا أبا غايب، في أربعينات القرن

الماضي كنتَ أنتَ في عزّ الشباب. فانتفضَ قائلاً: وما أزال في عزّ الشباب. "ليش أنا هَزّيت كاروكَك؟" فسألتهُ على الفور: ماهو الكاروك عندكم في البصرة؟ أجاب وصَدرُه يرتفع بتنفّسٍ عميق: يعني المَهد الهزّاز لتنويم الكالطفل. ما عندكم مثله في الموصل؟ قلتُ: مُمكن، ولكن أنا لا أدري. لكن القايروس السياسي يا أبا غايب هو الشعور العنيف بكراهية القوّات الأجنبية التي دخلت العراق عام 1917. وأهلُك في البصرة لديهم قصص من ذلك حتماً. واليوم دخلت قوّات مشابهة في الأربعينات، بعد حركة رشيد عالي الگيلاني عام 1941 والتي كانت حركة وطنية عربية عراقية تهدف للتخلص من السيطرة الإنگليزية المتَغلغِلة في شتّى مفاصل الدولة. ومع أن حركة الكَيلاني كان لها دعمٌ شعبيٌّ كبير إلاّ أن الحاجة لدعم خارجي جعلت أنصارالگيلاني يطلبون العون من ألمانيا النازية التي كانت تحارب الإنگليز وبوسعها تزويد أيّ حركة وطنية بالدعم العسكري لمحاربة الإنگليز أين ما كانت تلك الحركة. إنتشر التعاطف مع النازية في عراق الأربعينات، ولكنه كان حماسةً تفتقر إلى قاعدةٍ فكريةٍ وخبرةٍ في العمل السياسي. من أمثلة تلك الحماسة والإنجراف العاطفي أن بعض موظفي الحكومة والمعلمين بخاصة قد انتمى إلى النشاط النازي وصار ينادي بتعظيم هتلر، حسب قاعدة عدوّ عدوّي صديقي. كان هناك مقهى في الشارع الرئيس في المدينة يُجاهر صاحبه بتمجيد هتلر والنازية، ولديه فونوغراف "أبوالبوق" يعزف عليه إسطوانةً ليلَ نهار عدّة مرّاتٍ في اليوم، وأذكُر من تلك الإسطوانة: على مَهلك يا هتلر/ إنتَ زعيم المِحوَر/ لا تستعجل تتهّور. أتساءل اليوم كم كان ذلك القهوچي يعرف عن هتلر والنازية والسياسة قبل ذلك كلّه!

لكن ذلك الهياج العاطفي نحو النازية كانت له نتائج بالغة السوء على أناسٍ آخرين، أكثر من قيام شرطة النظام بمصادرة الإسطوانة من القهوَچي النازي وربّما أتلَفوها. فمثلاً معلّم الحساب في مدرستنا الابتدائية كان من

المندفعين نحو جماعة النازي . وما لبثَ أن اكتشفوه ففقدَ وظيفتَهُ وانعكس غيابُهُ ضرراً كبيراً علينا ،لأنّهُ لم يُكمل تعليمنا مُقرَّر الحساب لتلك السنة، ولم تستطع "المعارف" تعويضه. و في إمتحان "غاس السَني" رَسَب أكثر من نصف طلاب صفنا في الحساب،لأن أكثر من نصف الأسئلة للامتحان النهائي كانت تتطلب معرفة بحساب النسبة والتناسب ، وضعها مدرّس من مدرسة أخرى وما كنّا نعرف شيئاً عن ذلك الجزء من علم الحساب، وكنّا نحن الخاسرين. وبعد ذلك وجدنا معلِّم الحساب المفصول قد افتتح دكّاناً لبيع الشاي والسُّكَّر في سوق السراي بين دكاكين بيع الملابس والأقمشة!

ولم يخَفِّف من خيبة الخسارة والرسوب تلك السنة قدوم العيد، واستعدادات الأهل للتخفيف عن الأبناء بتحضير الملابس الجديدة. فالظروف المعاشية الصعبة لأغلب الأسَر كانت تتطلّب البحث عن الأرخص. وكان الأرخص تفصيل بدلة العيد عند "إبن كَغّو" الخيّاط السرياني في طرَف "سوق الصَفّيغين" حيثُ لايَسمع المرء ما يقول هذا الخيّاط الأنتيكة، الذي يجلس مُتَرَبِّعاً على الأرض، ولا يعرف الجلوس على كُرسي أمام ماكنة الخياطة،لأن ماكنته أرضيّة واطِئةً تُدار باليد، ويضيع صوتُها بين أصوات مطارق الصفافير. ومع الإشارة بالأيدي والتقاط بعض الكلام يفهم الولَد المسكين قول الخيّاط : "أنتَ ما غاح تتحمّم في حمّام العَطّيغين عالعيد؟ لما تطلع من الحمّام، أكون خلّصت الشغل. تعال خِذ بدلتك وغوح البسها بالبيت وعيدك امبارَك"!

ولمّا عاد الولد المسكين بعد الحمّام إلى بيتهِ يَحمل بدلة العيد ولبسها أمام أهله، وجدَ الكُم اليمين أقصَر من الكُم الشمال، وكذلك " البنطرون" لا يكاد يغطّي الركبتين. ما العمل وغداً العيد؟

تمَلمَلَ أبو غايب في مجلسهِ قليلاً وهمَسَ لي بلهجةٍ عاتبة: ما عندك حكايات أقلّ كآبة من هذه؟ قلتُ بلى. إسمع تصرّفات "عجايا الخبّيزين" في الحماسة الوطنية وكراهية جنود الاحتلال البريطاني .لاحَظَ أحَد هؤلاء الأولاد وجود بعض شاحنات الجنود مرصوفة في الشوارع، فأخبر

جماعته وقرّر الجميع الانتقام من جنود الاحتلال. ولكن كيف؟ كانت الأربعينات حديثَ الكبار عن النازي وبطولات هتلر في محاربة الانكليز. ولم يكن بين أولئك الأولاد من التحق بالمدرسة، بل كانوا يسمعون من الكبار أحاديث كراهية الانكليز والحماسة للنازي. إقترح أحد الأولاد عمل صليب معقوف (سواستيكا) من الخشب و حمل سطل أو علبة مليئة بماء ممزوج بصبغة حمراء ويدورون بهذه الأسلحة ليلاً ويغمسون الصليب المعقوف الخشب بها ثم يطبعونهُ على جوانب الشاحنات والسيارات العسكرية الانكليزية. وتكرّر هذا النشاط الوطني عدداً من الليالي حتى استطاع أحد جنود الاحتلال أن يلقي القبض على أحد هؤلاء النشطاء ويضربَه ضرباً مُبرحاً، فسرى الخبر بين "أفراد العصابة" وتوقّف نشاطهم بعد ذلك. لكن صُوَر شاحنات الانكليز وطبعات السواستيكا الحمراء بقيت حديث الجميع بكثير من الإعجاب مما يدل إلى أي مدى كانت كراهية المستعمر الانكليزي والحماسة إلى جانب عدوّ عدوّي قد تغلغلت في صفوف المجتمع في سنوات الأربعينات.

تبسّم أبو غايب بشيء من الفتور قائلاً: هذا عَبَث أولاد، ولو أنّه شديد التعبير عن التوجّه العام في البلاد. هل عندك حكايات أكثر طرافةً؟

قلتُ يا أبا غايب، دعني أحدّثك عمّا جرى في الموصل يوم 20 نيسان عام 1941. كانت كراهية الإنكليز وجيشهم تغلي في الصدور، تقابلها حماسة للألَمَاني، كما كانوا يلفظونها، بالإشارة إلى هتلر وجيشه. سمعنا يومها صوت انفجار هائل لم نعرف مصدره، لكن سرعان ما شاع بين الناس أن "طائرة الألَمَاني" ألقت "القنبَرَه" على معسكر الإنكليز في الغزلاني، فاستبشر الناس خيراً بقدوم المنقذ! ثم تكاثرت الإشاعات وكان أبرزها أن الطائرة كانت تقودها إمرأة وليس رجلاً، وأن تلك الامرأة كانت "حامل بشهرها التاسع". هكذا البطولات! صعد الأولاد إلى سطوح المنازل ليَرَوا

الطيّارة، وما لبث أن سمِعنا صوت اطلاقاتٍ متلاحقة. ومن سطح منزلنا الأعلى من بقية الأسطح رأيتُ رجلاً بكامل قيافتهِ وطربوشه الأحمر الغامق قد اعتلى قبّة كنيسة السُّريان وراح يطلق رصاصات من مسدس باتجاه الأعلى ،كأنّه كان يريد إصابة الطيارة التي طلعت فجأةَ كأنها تريد ملاحقة "طيارة الألَمَاني". طبعا رصاصات المسدس لم تصل بعيداً ولكنّها كانت علامة على الحماسة الوطنية التي شملت جميع أهل الموصل، بمن في ذلك العاملين في الكنيسة. علِمنا لاحقًا أن الرجل الشجاع هو "عزيزساعوغ " وهو من الرجال العاملين في خدمة الكنيسة. ثم علِمنا أن "الساعوغ" هو الرجل القوي الذي يقوم بقرع الناقوس في مناسبات الأعياد والأعراس أو الجنازات التي تُحمَل إلى الكنيسة. كنّا نُدرك من لَحن الناقوس إن كان ذلك يوم عيد، أو نقرات بطيئة حزينة إشارة إلى وصول جنازة إلى الكنيسة لإجراء الطقوس الكنسية عليها قبل دفنها.

كانت الإشاعات تقول إن طائرة "القصف الألَمَاني" يوم 20 نيسان كان لها مغزى خاص، لأنّه يوم ميلاد هتلر. لذلك كان قصف معسكر الغزلاني ابتهاجا بذلك اليوم!

كان إعجاب الناس بشجاعة عزيز ساعوغ دليلاً آخر على تلاحم المسلمين والمسيحيين في الموصل، وعلى وحدة شعورهم الوطني، وعلى غياب ماشاع في أيامنا اللاحقة من وجود تنافر بين الناس بسبب اختلاف الدين أوالمذهب. كنّا نشارك المسيحيين أفراحهم وأعيادهم ونتزاور في جميع المناسبات و نتبادل الهدايا. ولم يخطر على بالِ أحدٍ منّا في طفولتنا أي تنافر تجاه بعضنا بسبب الدين أوالمذهب. لم يكن يومها أي حديث عن المذاهب. فالمسلمون في الموصل هم من أتباع المذهب السنّي، لكننا كنا نحترم يوم عاشوراء وأيّام المناسبات الشيعيّة التي نسمع عنها. كنا يوم عاشوراء نقيم القراءات القرآنية ونطلب الرحَمات لشهداء عاشوراء. وكانت أسواق الموصل تُغلق وتُغطّى جميعاً بستائر من القماش الأخضر، لون السادة. وفي أحد أيّام شهر شعبان، على ما أذكر، كانت الجدّات

يَخبِزنَ على التنّور أرغفة خبز أكبر وأسمَك من المعتاد ويزيّنونها بحبّات بهار كبيرة إسمها "كَبابَة" لها رائحةٌ طيبةٌ ومذاقٌ حريفٌ قليلاً. كانت تلك الأرغفة إسمها"خُبز العبّاس" وكان علينا نحن الصغار أن نحمل الأرغفة وندور بها على المساجد والجوامع ونقسِّمها على الفقراء الجالسين على أبواب الجوامع بانتظار الصَدَقَة من المصلّين عند خروجهم. لا أدري إلى اليوم مناسبة خُبز العبّاس هذه، لكن الجدّات كنّ يقُلنَ إنها احتراماً لآل البيت، لأنّ العبّاس هو الثاني من أعمام الرسول العشرة، و تقسيم خُبز العبّاس على الفقراء في هذا اليوم "يُكسِبنا أجر"!
وجد أبو غايب في حديثي غرابةً ومتعةً وأهمّيةً خاصّة، لأنّه يبيّن أن "أهل السنّة" لا يقلّون احتراماً لآل البيت من أهل وسط العراق وجنوبه، وهُم يعبِّرون عن ذلك الاحترام بأسلوب متقدِّم على غيره.

لاحظتُ أن أبا غايب يتمَلمَل في مجلسه وعلى وجهه تساؤل كأنه يتردّد في طرحه. لكنه استجمع أطراف كبريائه للحديث مع فتى أصغر منه بسنوات كثيرة. فقال: هل لديكم في الموصل جالية يهودية كما عندنا في البصرة؟
أجَبتُه بهدوء، ربّما كان لا يتوقّعه: نعم، لدينا يهود في الموصل. أغلبُهم يعملون في التجارة و صياغة الفضة، ولا أعرف لماذا ليس بصياغة الذهب. وهم يسكنون في "محلّة اليهود". كان في تلك المنطقة مدرسة السموأل ، و هو السموأل بن عادياء، الشاعر الجاهلي، صاحب: إذا المرءُ لم يَدنَس من اللؤم عِرضُه/ فكلّ رِداءٍ يَرتديه جميلُ. وأحسَبُ أن اسمهُ بالعبرية" شموئيل بن عوقيديا". وحوالي المدرسة وخلال محلة اليهود كانت بيوتُ المسلمين تُجاورُ بيوت المسيحيين واليهود معاً، وقريبًا من مدرسة السموأل كانت تقع مدرستنا "المثنّى المتوسطة". وكان في صفّنا حوالي 30 طالباً منهم حوالي عشرة من المسيحيين وأربعة طلبَة من اليهود. كان يشاركني "رَحلةَ المكتب" طالبٌ يهودي، وإلى يساري طالبٌ يهودي آخر يشاركه طالبٌ مُسلم من أسرةٍ إسلامية معروفة، وخلفهما

طالبان يهوديان يجلسان معاً. لم يكن بيننا وبين أولئك الطلبة أي شعور من النفور أوالغربة، لأن تربيتنا العربية الإسلامية كانت تحترم أهل الكتاب من المسيحيين واليهود. ونحن اليوم نسمع الكثير في الصحافة الغربية عن معاداة الساميّة، ويقصدون معاداة اليهود. ولكن هل نسيَ أصحاب السياسة الغربية أن العرب ساميون كذلك لأنهم أولاد سام إبن نوح؟

بدَت على وجه صاحبي علائم ارتياح، فقال: كما تعرف، فإن الصحافة الغربية تحت سيطرة "أولاد العمومة" وهم الذين يوجّهون الرأي العام، أو أكثره، إلى مسألة معاداة الساميّة ويقصدون معاداة اليهود، الذين تخلّص منهم الغرب فقذفهم إلى فلسطين العربية التي يختلط فيها المسيحيون والمسلمون في عيشٍ مُشترك وتعاون، منذ أن اعتذر الخليفة عُمر بن الخطاب(رض) يوم فتح بيت المَقدس عن الصلاة في كنيسة القدس خِشيةَ أن يأتي بعده من يُطالب بحقوقٍ في تلك الكنيسة، وكان أن سلّمَه القائمون على الكنيسة مفتاح كنيسة القدس، اعترافاً بموقفه الإسلامي الأصيل.

سأل أبو غايب : ولكن كم من المسؤولين في الغرب يعرف هذه الحقائق، وكيف لنا أن نُقنِع أهل الرأي في العالم الغربي أن العرب والمسلمين لم يكونوا يوماً في عداء مع اليهود؟

كان جوابي المُتعَب: يا أبا غايب، تَعرف سَطوةَ المال على أهل الصحافة والسياسة في الغرب، و تعرف أن أولي الأمر في بلادنا العربية مشغولون بمصالحهم الخاصة، في الأعمّ الأغلب. وإلاّ فمن يُفهِم أهلَ الصحافة والسياسة في الغرب أن اليهود كانوا يعيشون في أمنٍ وأمانٍ أيّام الحُكم العربي الإسلامي في الأندلس ؟ ويوم سقوط غرناطه في 1/1/ 1492 على يد الملك فرديناند والملكة إيزابيلا، وكلاهما مسيحي كاثوليك... أوروبي متحضّر، أرغما يهودَ الأندلس على التحوّل نحو الكثلكَة، وإلاّ فمصيرهم تحت حدّ السيف. فمن استطاع الهرَب وجد في المغرب العربي الإسلامي ملجأً وأمناً، وبعضهم وَجَدَه في كنف الإمبراطورية الإسلامية العثمانية.

أردف أبو غايب سؤاله بسؤال آخر: وهل تحسَبُ أن أصحاب الصحافة والسياسة في الغرب يجهلون هذه الحقائق؟
قلت: لا أحسَبُهم يجهلون، ولكنها سلطة المال و ماكينة الدعاية!

أخذ أبو غايب نَفَساً عميقاً واستلقى في مجلسه، موجّهاً نَظره إلى سقف الغرفة. ثم سأل بصوت مُتهالك: ولكن ما أخبار حال اليهود في بلادنا العربية في العصور اللاحقة، طالما أنتَ تتحَدّث حديثَ المؤرخ المتابع للأحداث؟ ما شاء الله على ذاكرتك!
أحسستُ بشيء من الزَهو لوَصفي بالمؤرخ، قويّ الذاكرة! فقلتُ يا أبو غايب، صحيح أنّك "ما هزّيت كاروكي" ولكن حتماً أنت على علم بتاريخ العراق منذ تأسيس المَلكيّة بعد الاستقلال عن التبعية للحكم العثماني. ألا تحوي ذاكرتك أن أوّل حكومة وطنية أسّسها الملك فيصل الأول ضمّت اليهودي حسقيل وزيراً للمالية؟ وفي أوائل عشرينات القرن الماضي لم يكن في العراق أي نوع من الحساسية تجاه اليهود وخصوصاً في بلدكم البصرة كما في بغداد. وأنا في الموصل لم أسمع في طفولتي ولا في أيام الشباب أي شعور معادٍ لليهود ، وكان منهم غير قليل في الموصل .أذكرُ في طفولتي انني كُنتُ أمسِكُ بيدِ جَدّتي وأعينُها في السير إلى دار جيرانٍ لنا، وتصادفَ مرّةً مرور اثنين من صاغة الفضّة اليهود بلحاهم الطويلة، قادمين من سوق الصيّاغ القريب، فتعرّض لهما إثنان من "عجايا الخبّيزين" فانتهرَتهُما جدّتي فأسرعا بالهروب، وجدّتي تصيح بهما: حرام عليكم، هذوله من أهل الكتاب، والإسلام يمنع إيذاءهم. كنّا نلاحظ هذين الصائغين في دكّانٍ واحدة
يتناولان الفطور في وقتٍ قريبٍ من الظُهر،وفطورهما بيضة مسلوقة واحدة يقطعها أحدُهُما إلى نصفين متساويَين بحلَقَةٍ من سِلكٍ معدني، ببراعةٍ نادرة.

وفي أواسط الأربعينات حصلتُ على عمل صيفي توفّر لي منه بعض الدنانير، فكان أوّل ما فكّرتُ فيه شراء ساعة يد، ماركة "أولما" كنتُ أتوقّف للتطلّع إليها في "ڤترينة" ساسون، في طريقي إلى المدرسة. فلما أقبلتُ على المحل، أدرك ساسون غرضي،فقابلني بابتسامة قائلاً: كنتُ ألاحظ اهتمامك بالساعات. ماذا يُعجِبُك منها؟ فلما أشَرتُ إلى ساعة"أولما" قال إن هذه " آخر مودة" وسعرها خمسة دنانير. ولكن إذا أعجبتكَ أخصم لك نصف دينار، لأني أراقبك رايح جاي حامل كُتبَك، ولا تُرافق التلاميذ الأشرار. فاخذتُ الساعة ودفعتُ الأربعة ونص، وهو مبلغ كبير في تلك الأيّام. وصار طلاّب صفّي يُكثِرون من سؤالي عن الوقت، لكي يتطلّعوا إلى هذه الساعة الذهبية المستطيلة، في يد طالبٍ من غير أبناء الأغنياء!

وعلى المستوى الرسمي، كان عندنا في الموصل مدرسة "اليانص خضوري" التي بناها يهود الموصل بأموالهم الخاصة. وكان فيها قاعة واسعة تستعملها مديرية المعارف في الإمتحانات العامة، ولا يُمانع أصحابها في استعمالها للأعداد الكبيرة من الطلبة. فالتعاون كان الصفة الغالبة في العراق بين جميع الأعراق والديانات في البلاد.

طبعا هناك بعض النّكات على المستوى الشعبي ، مثل النّكات حول الكاثوليك في بلد البروتستانت في أوروبا . لا ينسى العراقيون إلى يومنا هذا أن حسقيل انتخبه الملك المسلم السعودي فيصل الأول لأنه كان بارعاً في شؤون المال، و لم يكن دينه اليهودي عائقاً أمام وزارته في تشكيلة فيها السنّي والشيعي، لأن الجميع عراقيون أولاً. وكان فضل حسقيل أنه أصرّ على الحكومة البريطانية أن يكون دفع حصّة العراق من نفطه بالجنيه الذهب، وليس بالعملة الورقية، وهي عرضة للتقلّب حسب ظروف التجارة والسياسة ، لكن الذهب يبقى ذهباً . بقي حسقيل محترماً في الأوساط العراقية. ثمّة حكاية سمعتها من مصادر شتّى أن الملك فيصل الأول طلب من حسقيل وزير المالية أن يخصص مبلغ 200 دينار

لإعمار مدرسة في الديوانية، لكن حسقيل اعتذر أن الميزانية لتلك السنة قد أخذت صورتها النهائية ولا يمكن اقتطاع أي مبلغ منها لتلك السنة ! أسألك يا أبا غايب : هل يمكن أن يحدث أمرٌ كهذا في جميع الحكومات التي أعقبت تلك الوزارة الأولى ؟ من كان يجرؤ أن يقول لا لرئيس الدولة أو أي رئيس وزراء في ما عرفتَهُ من تاريخ العراق الذي عاصرتَهُ طوال السنين؟

بقي أبو غايب ساهماً وهو يستمع إلى هذا المؤرخ الحَدِث. لم أجرؤ أن أسأله إن كان قد أخذ غفوةً من حديثي الطويل. وقبل أن أسأله فاجأني أبو غايب بما لم أتوقّع : "وفي غير السياسة والتجارة ، هل كان ليهود العراق حضورٌ مميّز؟" قلت: لا يمكن أن تنسى المهندس الشهير نسيم سوسة العربي العراقي المولود في مدينة الحلّة الشيعية أساساً. ينتسب مهندس الريّ هذا إلى يهود الجزيرة العربية ، وقد اعتنق الإسلام وصار اسمه الدكتور المهندس أحمد نسيم سوسة. كتب هذا الرجل عن تاريخ يهود العراق وعن مزاعم إسرائيل حول كونهم من نسل يهود التوراة ، وبقي عربياًعراقياً من أصل يهودي ، يقوم احترامُه على نشاطه المهني وعلى ثقافته التاريخية الرصينة .

تململ أبو غايب في مجلسه الوثير، وكنتُ بين حين وآخرأحاول أن أرى إن كان ذلك المجلس الوثير قد تسبّب في غفوة لم أرغب في إيقاظه منها. قال بشيء من البَرَم كما بدا لي: لماذا لا تسمع قصصي بدل ما أغرقتني به من حكاياتك؟

قلتُ: يا ليت ! أنا أتشوّق لما حَدَث معك بعد أيام المظاهرة والإضراب عن الطعام . ربما كنتَ البصراوي الوحيد في إعدادية الموصل !

إعتدل أبو غايب في جلسته وقال: دخلتُ الكلّية في قسم اللغة العربية فوجدتُ القسم الداخلي عالماً مُصَغّراً لجميع ألوية العراق بأعراقهم وأديانهم، من مسلم ومسيحي وصابئي و يهودي و يزيدي . لكن القلائل من اليهود ما كانوا يعيشون في القسم الداخلي مثلنا، لذا لم يكونوا ظاهرين

إلاّ في المحاضرات، وليس في المطعم الذي نرى فيه بعضنا عن قُرب ثلاث مرّات في اليوم، مما يزيد التعارف على بعضنا. بقي الطلبة اليهود القلائل في الكلية إلى حدود عام 1950، إذ كانوا يتناقصون حتى اختفوا تماماً بعد ذلك التاريخ، أمّا اليزيدية فلم يكونوا يتميّزون عن غيرهم إلاّ بلَكنةٍ بسيطةٍ في لهجتهم ، نعرف منها أنهم من أهل سنجار فنُمازحَهم بالحديث عن التّين الذي يُشتَهرون به. في القسم الداخلي تعلّمتُ الكثير من اللهجات العامّية العراقية، وبخاصة الشعر الشعبي الرقيق بصوره الرومانسية. أذكر قصيدة على لسان عاشق من العمارة، وهي قريبة من البصرة مدينتنا ، تقول: بگلبي واگول بعيد/ چا وين اضمّه؟ .نحن في الجنوب نلفظ حرف القاف كافًا مُعجَمة، ومثلنا أهل الخليج .ونلفظ الجيم مُعجَمة و نكتبها بثلاث نقاط . لذا فأنتم المصالوه قد لاتسيغون شعرنا الشعبي. يقول البلاّم وهو عائد مساءً ومشحوفُه ينسابُ على الماء نحو الصريفة التي تلوحُ له من بعيد: شِفْت الضوَه مْن بْعيد/ گلت احترگنا. القاف كاف مُعجَمة كذلك .كان ضوء الحبيبة المنتظرة في الصريفة أشبه بالنار وهي الخطر الوحيد الذي يتهدّد الصريفة المقامة من أقصاب البردي. هل تسيغ هذا أيها المصلاوي؟ أما أنا البصراوي فلا أستطيع الترنّم مثلك بأغنيتكم: "جاني خَبَغ فوق خَبَغ/ سعاد وكن ماتت دَلال أوي دلال... شَغباتكم بارده، وصْطوحكُم عالي عيني دَلال." هل ترى في هذا أي صوره توحي بالحب؟ لا تزعل، لكن نحن غير نَمّونه .كان جوابي: لم أزعل يا أبا غايب! الأذواق تختلف ،والنشأة والمحيط هما السبب في اختلاف النظر إلى الأمور، ومنها الموسيقى والغناء والطعام أيضاً. هل عندكم في البصرة أو حتى في العراق من بغداد إلى الجنوب أي أكلة تشبه الكبّة المصلاويّة أو "عوق تنّوغ" أو غيرها مثل الدولمة بالسِلِق والباذنجان والطماطم والبصل والكوسا و جميعها محشوّة باللحم المفروم والبهارات، و في قاع الدّست ضلوع لحم غنم... وكُلْ ولا تاكل!

تبسّمَ أبوغايب،وأعلنَ عن إعجابه بالأكلات المصلاوية،وأوّلها الكبّة وأضاف: لقد فتحتَ شَهيّتي وأثرتَ جوعي! سامحك الله!
قلتُ: إسمع هذه يا أبا غايب البصراوي. كان معنا طالب شديد الظرف، يختلق النكات والتعليقات اللاذعة على كلّ من حوله، لكنّه كان طيب القلب، شديد التديّن ، ولو أنه لا يتورّع عن إطلاق نكات عن شخصيات دينية ، و نحن نضحك من أحاديثه ونعذره عن مبالغاته، لأنه لا يقصد الإساءة. مرّةً كنّا في حديث الكبّة الموصلية فقال صاحبنا الظريف إن الكبّة عراقية الأصل، وكانت معروفة عند الآشوريين ، و استمرّت منزلتها الرفيعة بين الأطعمة العراقية حتى ظهور الإسلام وانتشاره إلى العراق، ولو أن دولة المناذرة لم تعرف الكبّة لبُعدها عن الموصل قبل دخول الإسلام. لكن يروى عن أبي هُرَيرة (رض) أن رَجُلاً أقبل على مجلسه ليسأله، وصرنا نتوجّس أن يكون السؤال ينمّ عن تجاوز على القيم الدينية. لكن السائل قال بجدّية غير مفتعله: يا أبا هريرة: ما طعام أهل الجنّة؟ فأطرق أبو هُرَيرة هنيهه ثم قال: إنّها الكبّة. وكرّرها ثلاثاً، وكان مُتّكئاً فجلس!
ضحك أبو غايب حتى بدت نواجذه، وقال:هذه مبالغة موصلية لا يمكن قبولها إلا على محمل المزاح والتعصّب المصلاوي. لكنك فعلاً شوّقتني كثيرا للكبّة. هل تدلّني على مطعم يقدّم الكبّة بين ما يقدّم من وَجبات؟ قلت: الكبّة مال السوق مو مثل شغل البيت! لكن أبا غايب بدا عليه شيء من الضيق بسبب مابدا له تعصّباً "مال مْصالوَه".
قال أبو غايب: دعنا من حديث الطعام والدولمة والكبّة و"دناوة النفس" وخلّيني أحكي لك عن بعض ما جرى لي بعد التخرج.
صَدرَ لي أمر تعيين مدرساً للغة العربية في كويسنجق . فسالتُ أين تقع هذه المدينة؟ قالوا لي إنها في المنطقة الكردية بين أربيل والسليمانية. بدأت المخاوف تتجمّع في ذهني. ماذا يفعل البصراوي في منطقة كردية؟ أنا لا أفهم لهجتكم الموصلية بسهولة، فكيف سأتفاهم مع من لغتُهم ليست عربية أساساً؟ قلتُ له يا أبا غايب، لهذا السبب أرسلوك إلى مدرسة في المنطقة الكردية لكي تُعلِّمَهم العربية لأنك إبن البصرة، ومن سلالة الفراهيدي والجاحظ و بقيّة العِترة الطيّبة. ومَن مثلك سيُعلِّمهم العربية على أصولها!

إبتسم أبو غايب بما يكفي لإزالة غمامة خفيفة من الكآبة على وجهٍ بدا فيه شيء من التغضّن. قال: سأعمل جهدي إذا كان هذا النصيب المقسوم لي.
وبدأ أبو غايب يصف سَفرَته إلى كويسنجق، واصفاً جمال المنطقة وطيب أنسامها البليلة التي لا تُشبه أهوية البصرة، حتى في الأيام والليالي غير الصيفية. قال: لعلّني أكتشف أجواءً غير ما عرفتُ في البصرة ولا في بغداد أيّام الكلية. فلماذا لا أكتشف ما لا أعرفه عن بلادي؟
واصَلَ أبو غايب حديثه المُمتع لأنه كان يتذكّر أيام شبابه. قال: في الكليّة كنّا سعداء بوجود عددٍ من الأساتذة المشاهير كلٌّ في تخصّصه، في اللغة أو التاريخ أو العلوم ... وبعضهم كان يتمتّع بظرف ونكات ، ويتحدّث عن جوانب طريفةٍ من حياته الدراسية في أوروپا أو مصر. كان بينهم أستاذ يحمل الدكتوراه في الكيمياء الصناعية من برلين ، وأحسَبه كان الوحيد الذي درس في ألمانيا أيام الحرب العالمية الثانية. كان هذا الأستاذ يتحدث بصراحة عجيبة وبكثير من النّكات عن مسيرته الدراسية. قال: كنت فتى في مرحلة الدراسة المتوسطة أحاول الحصول على عمل خلال العطلة الصيفية لكسب شيء من المال يُعين في تلبية حاجاتي الخاصة من ملابس وغيرها. وكان في جوار مدينتنا موقعٌ للحفريات الأثَريّة بإشراف جماعة من خبراء التنقيبات الألمان، وكان أحدهم يتكلم اللغة العربية الفصيحة. فأخذوني لأساعدهم في شراء حاجات من أسواق مدينتنا و أرشدهم إلى الدوائر الحكومية التي لها بعض العلاقة بأنشطتهم . وفي خلال ذلك التقطتُ بعض الكلام باللغة الألمانية و شجّعوني على تعلّم شيء من اللغة قراءةً وكتابةً. وفي آخر الموسم إقترحوا أن يأخذوني معهم إلى ألمانيا حيث أدخلوني مدرسةً ساعَدَتني في إتقان اللغة وأكملتُ دراستي الثانوية ثم التحقتُ بالجامعة لدراسة الكيمياء الصناعية. ثم قامت الحرب العالمية الثانية، لكنني واصلتُ دراستي على الرغم من صعوبات الحياة أيّام الحرب واستطعتُ الحصول على الدكتوراه وعُدتُ إلى العراق في أول فرصة وتعَيّنتُ في الكلية مدرِّساً للكيمياء.

كان هذا الدكتور الألَمَاني ، كما كنّا نسمّيه، شديد الإختلاط بالطلبة، ولا يتوقّف عن حكايات مغامراته أيام الدراسة. كنّا نعجبُ كيفَ استطاع

طالب متوسطة أن يتعلّم اللغة الألمانية ويُكمل المدرسة والجامعة في تلك الأيام الصّعبة ! كان بعض الخبثاء يقولون إن شهادَته كانت بدعم من حكومة هتلر الذي كان يدعم التطوّرات في عراق الأربعينات مع فورة التعاطف مع النازية ،و أن شعارَه كان "هذا يكفي لأهل الشرق!"

المهم أن هذا الدكتورالأَلَمَاني حدّثنا عن مغامراته في السفر من برلين إلى السويد وحدَه على درّاجَةٍ هوائية، مما أثار فينا كثيراً من التساؤلات حول صدق رواياته في تلك السنين الخطرة. ولكن كان في أحاديثه نوعٌ من التحدّي واستثارة همم الشباب أيّام كنّا في منأى عن الحرب ومخاطرها.

هنا تذكّر أبو غايب تأسيس "كليّة الآداب" ببغداد في حدود عام 1950، فتقاطر إليها الشباب ممن لم يلتحقوا بالعالية، لسبب أو آخر.واستقطبت الكلّية الجديدة عدداً من الأساتذة المتميّزين، أو حديثي التخرّج في جامعاتٍ شهيرة في الغرب، كانوا أوّل ثمار البعثات بعد الحرب العالمية الثانية. وتذكّر أبو غايب بشكلٍ خاص أن كليّة الآداب كان لها عميد اتّخذ "معاونة لشؤون الطالبات". كانت هذه المعاونة سيدة بريطانية، تخرّجت في أوكسفورد، وهي زوجة مهندس عراقي بارز. وكانت هذه السيّدة تدور في أرجاء الكلّية طوال النهار، تتفقّد شؤون الطالبات وتسألهم عن أية ملاحظات لهم حول دراستهم أو صحّتهم أو ما يعنّ لها من شؤون. وفي تلك الأيّام ظهرت عادة مستَورَدة من الغرب هي ارتداء" الميني جوب" تلقّفتها الصبايا العراقيّات بسرعة. لم تكُن تلك "المودة" مُستساغة في مجتمع عراقي حديث العهد بالإنفتاح على العالم الخارجي والأوروبي بشكلٍ خاص. وكانت السيّدة معاونة العميد لشؤون الطالبات تُدرِك هذه الحقيقة ، لذا كانت تقف بباب الكلية صباحاً، فإذا أقبلت طالبة بالميني جوب كانت تمنعها من دخول الكليّة وتأمرها بالعودة إلى دارها لتعود بملابس "مُحتَشِمة" وبسُرعة، وإلاّ تُعَدّ "غائبة" ذلك اليوم، والغياب كان يؤثِّر في نتيجة الطلاّب في تلك الأيّام.

سأل أبو غايب: يا تُرى هل يُمكن أن يحدث شيء من هذا في هذه الأيّام!

وتذكّر أبو غايب نادرةً أُخرى من المُستَبعد أن تتكرّر في أيّامنا هذه.قال :كنّا نذهب لزيارة بعض الأصحاب في الكليّة الجديدة. وصادف أن ذهبتُ مع آخرين في يوم إعلان " العمل الشعبي" لكلّ مؤسّسة أهليّة أو حكوميّة والقيام بعمل مفيد، إلى جانب الأعمال الحكوميّة. وجدنا في مدخل كلّية الآداب الدكتور علي الوردي يقود مجموعة من الطلبة والطالبات وبأيديهم المكانس وهم يكنسون الممرّات، بدءً من المدخل الطويل واستمراراً إلى داخل الكليّة. كان الدكتور علي الوردي قد عاد حديثاً من جامعة أوستن في تكساس، وكان بذلك أول عراقي متخصِّص في علم الإجتماع، وغدا بعد سنواتٍ قليلة، كما يعلم الجميع، صاحب مؤلّفاتٍ كثيرة في ذلك العِلم الجديد. كان ذلك المنظر ممّا ترك الأثر الكبير عند الشباب في قيمة العمل من أجل الوطن، دون انتظار مكافأة أو ثواب، وبخاصة عندما يكون الأستاذ الجامعي هو القائد في عمل مفيد للآخرين ،دون تكبّرٍ أو تعالي.

استأنف أبو غايب حديثَه عن تَعيينه مُدرِّساً للعربية في منطقه كردية وكأنه يزرع المغامرات والمفارقات والطرائف حيثما حلّ وارتحل. قال أبو غايب: في أول أسبوع لي في كويسنجق جاءنا من مصر شابٌّ لتدريس اللغة الانكليزية ففرحتُ بالخبر ،على أمل أن أحسِّن لغتي الانكليزية مع هذا القادم الجديد مثلي ، إضافةً إلى توقّع الكثير من النّكات المصرية، وهي طبيعة ثانية لديهم.

وفي اليوم الأول اعترف هذا القادم الجديد بأن انكليزيتهُ "على قدّ الحال"، لأنه خريج قسم الفلسفة ولم يجد سوى إعلان عن حاجة العراق إلى مدرسين للغة الإنكليزية، فتقدم بطلبه وقُبل فوراً، لا ندري كيف بلا وثائق تؤكد تخصّصه. أثبت هذا القادم الجديد أنه "كلاوچي" درجة أولى. سألتُ أبا غايب عن معنى "كلاوچي" فقال : يعني بالعربي الفصيح "أُلعُبان" أو بالعامّية الماخوذة عن الفرنسية "شارلاتان" وبعضهم يلفظها "شارلطان". لماذا؟ لأنه روى لنا أنه ساعة وصوله إلى بغداد سأل أين يمكن أن يشتري سِداره ، وكان يسمّيها فيصَلية، ناسياً أن السداره صار القليل مَن يرتديها في تلك الأيام ، لكنه كان يريد أن يبدو عراقياً بالسداره ،ونسي أن المنطقة التي تَعيَّن فيها أكثر استغراباً للسداره مما كان يتوقّع. مع ذلك وجد

"بيّومي أفندي"، وهو اسم زميلنا الجديد، طريقه إلى سوق السراي وإلى دكان "صيئون شمعون" الذي ربما كان آخر من يبيع السداير في بغداد الخمسينات. كان منظر بيّومي أفندي بالسداره يثير الضحك فعلاً، لأن السداره لا تغيّر ملامحه المصرية جِدّاً. لكن وجودَه أضفى على عزلتنا في تلك المنطقة كثيراً من السرور، وغير قليلٍ من النكات التي لم نسمع بمثلها من الأفلام المصرية في تلك الأيام. صرتُ أنا و بيّومي أفندي غريبان لا يفترقان. وصرت أتكلّم بلهجة مصرية تنطلي على من لا يعرفني من قبل. أمّا التلاميذ فكان بعضهم يكلِّموني بلهجة قريبة من اللهجة المصرية لكثرة ماكانوا يسمعونا نتحدث في باحة المدرسة عند نهاية الدروس. ومع بداية الربيع في عامنا الأول في المدرسة بدأ موسم الحفلات والسفرات القريبة في الجبال المحيطة بمنطقة كويسنجق . وفي أحد أيام ربيعنا الأول، سمعنا بقدوم سفرة مدرسية من بلدة كردية مجاورة لنا، يقودها مدرّس مصري سمع بوجود مدرّس مصري في مدرستنا في كويسنجق. جاء هذا المدرس المصري الزائر إلى باحة المدرسة حيث كان بعض التلاميذ يلعبون كرةالسَلّه ، وبعضهم "يتشمّس" بشمس الربيع المبكّر. سأل الزائر عن المدرّس المصري فأشاروا اليّ حيث كنتُ واقفاً "أتشمس" فجاء الزائر وبادرني بسؤال مفاجئ: "عامل ازّاي أنت ويّا العرائيين دول اولاد الإيه؟" فأجبتُه بلهجة مصرية قحّه: " نعمل ايه يا عم... أهي أكل عيش!" وخشيتُ أن تستمر الأسئلة ويكتشف الزائر خطأه و جُرأتي فيُصيبنا الإحراج معاً. وسُرعان ما وصل بيّومي أفندي بلا سداره، فأسرعتُ بالإنسحاب، ولا أدري كيف تفاهم الإثنان في غيابي! لكنّ بيّومي أفندي وصف لي ما حَصل بعد انسحابي، وضحكنا طويلا.

قُلتُ: يا أبا غايب، لماذا لا تحدّثني عن أيّامك في الكليّة قبل تخرّجك؟ فذاك حتماً فيه الكثير من المتعة و المعلومات التي لا يعرفها أبناء جيلي. قال: بلى، كانت تلك الأيّام حلوة، والناس عايشين بخير وسلام على الرغم من حدوث بعض العَنعَنات لأسباب قيلَ إنها "سياسيّة" . لكن الواقع أن الشباب، امتداداً لمشاعر عقد الأربعينات، لم يفقدوا حماستهم ضد الأجنبي الذي دخل العراق مُحتلاً عام 1917، وبقى مسيطراً على مختلف نواحي الحياة في العراق بأساليب شتّى. كانت حركة رشيد عالي الگيلاني هي العصب المحرّك للشعور الوطني العراقي، مهما حاولت الجهات الأجنبية

أن تشوّه من مفهوم تلك الحركة وغاياتها. و كان قرار تقسيم فلسطين عام 1947 وما تبعه من مظاهرات شعبية، وبعده نكبة 1948 هي الشغل الشاغل لجماهير الشباب الذين رأوا في ذلك كلِّه استمراراً للاستعمار الأجنبي للبلاد العربية. وكان شباب كليّتنا وشباب كليّة الحقوق هم الجماهير المتنوِّرة التي وقفت ضد جميع الحكومات في البلاد. لكن الحكومات صارت تُقابل تمرّد الشباب بتهمة كانت جديدةً في الخمسينات، ومخيفةً على جميع المستويات، وهي تهمة الشيوعية. فكان المتظاهرون ضد معاهدة بورتسموث يُتّهمون بالشيوعية، ونتج عن ذلك فصل عدد من شباب الكليّات من كليّاتهم، وكان منهم شعراء بارزون وأدباء وفنّانون. لكن مقاومة الشباب لم تتوقف. ولسببٍ لا نعرفه أُعيد الطلبة المفصولون إلى كليّاتهم في السنة اللاحقة، كنوع من التلويح باحتمال تكرار العقوبات ،وهي حركة حكومية لم تَنطلِ على الشباب، لأن المقاومة استمرّت في الغليان بأشكال أخرى، والحكومات المتلاحقة استمرّت في تشديد الرقابة، ولم يكن هناك ما يشير إلى التنازل من أي الطرفين. كان ذلك الوضع على خطورته مصدر سعادة للشباب.

إلى جانب ذلك، كانت الحياة في الكليّة هادئة والأنشطة الأدبيّة والفنّية مزدهرة. وكان العميد يدور بين الطلبة ويتفقّد أحوالهم، وأحياناً يفاجئنا في الليل، ويتفقّد القسم الداخلي و المكتبة ومَن فيها من الطلاب الساهرين حتى العاشرة ليلاً ، موعد إغلاقها. وعلى ذِكر المكتبة: زوّدنا العميد بمنضدة من الخشب الفاخر، طويلة، تشغل جانباً من المكتبة، مع مقاعد وثيرة لكي يستغرق الطلبة بالقراءة. كان ذلك العميد هو الدكتور عبد الحميد كاظم أستاذ التربية وعلم النفس. مرَّةً فاجأنا في فترة ما بين المحاضرات صباحاً، وكان الممرّ مزدحماً بالطلبَة والطالبات. وإذا به ينحني ويلتقط قطعة ورق صغيرةٍ جدّاً من الأرض، و يسير بها إلى سلّة مُهملات في زاوية الممرّ. كانت تلك الحركة كافيةً للجميع لكي يَحرصوا على نظافة الكليّة والممرّات، وراح يتفحّص الجدران في سيرهِ ليتأكّد من خلوّها من أيّ كتابة أو بُقعةِ حِبر.كانت إحدى طالبات صفِّنا شديدة التأنّق والزينة، دائمة الترنّم بأغاني فريد الأطرش. صادف ساعتئذٍ أن كتبت بالقلم الرصاص على الجدار النظيف: الحياة حلوة، بسِّ تفهَمها. فلمّا رأت العميد مُقبِلاً من أوّل الممرّإحتارت كيف تمحو ما كتبت على الجدار، فأدارت

ظهرها وغطّت ما كتبت بإسناد رأسهاعلى الكتابة.ولمّا مرّ العميد من أمامها حَيّتهُ بابتسامة صباح الخير دكتور.فردّ التحيّة سائلاً: عندك صداع؟ ليش ساندة راسِك على الحائط؟ أدركنا جميعاً أن الحيلة لم تنطَلِ على عميدنا.

وحديث المكتبة ذو شجون. كان مديرها عبد الحسين، نَجَفي من عشّاق الكتب، مثل جميع أصحاب المكتبات في سوق السراي، تعرفهم من الطربوش المحاط بقماشة خضراء، وكلّهم يحمل لقب سيّد، وكلّ واحد من هؤلاء السادة يحسَب كلّ كتابٍ كتاباً مقدّساً، من طريقة مَسكِه الكتاب. كنّا إذ نمُرّ بسوق السراي ونطلب من أحد السادة كتاباً بعَينه، يرفعُ ذراعَهُ خلف رأسه ويتناول الكتاب المطلوب، دون النظر إلى موقع الكتاب على الرف وبدون النظر إلى العنوان. وكان ذلك من أعجب العجب. كان صاحبنا عبد الحسين من هذه العشيرة الطيبة. فقد كان دائم المُراجعة لدفتر الإعارات في المكتبة، لمعرفة الطالب الذي استعار كتاباً ولم يُرجِعهُ إلى المكتبة خلال الخمسة عَشرَيوماً المُحدّدة للاستعارة. وكانت طريقته لملاحقة "المخالفين" طريقَةً طريفةً في شِدّتها بالتلويح بحرمان المُستعير لاحقاً و إبلاغ العميد بذلك. و كان يتصيّد المخالفين ساعةَ موعد الغداء، إذ كان الطلبةُ يتجمّعون أمام المدخل الكبير، فيبرُز صاحبُنا عبد الحسين وبيده قائمةٌ بأسماء "المخالفين"، ويبدأ بمخاطبتِهم وحثّهِم على إعادة ما استعاروا، وإلاّ... وفي أحد الأيّام كان المتّهم طالباً موصِلياً وشاعراً معروفاً، لكنّهُ كان يُطيل الاحتفاظ بما يستعير من كتُب، حتى ينالَهُ التحذير. وفي ذلك اليوم خاطب القيّم على المكتبة ذلك الشاعر، وشدّد في التحذير، بلهجة عالية. فما كان من المتّهم إلاّ أن أجابَهُ بلهجَتهِ الموصلية: "زَغّغ قوبجة ساكوتك واحكي معايي." إنفجر الجميعُ بالضحك، وهم من ألويةٍ عراقيةٍ شتّى، لا أحسَبُ أنّهم فهموا لغةَ شاعرنا الذي واصل الابتسام ببرود، و سيكَارتُه ترتَعش بين شفتيه. إزداد غضب عبد الحسين، الذي لا شك أنه لم يفهم كلام هذا المصلاوي. وازداد غضَبُه إذ رأى الجميع يضحكون، وارتفع هياجُه وخاطبَ المتّهم بقوله: "شوف، إذا تْسِبني بالمصلاوي ترى أسبّك بالنجفي." إنطلقت عاصفةٌ

ثانيةٌ من الضحك، فانبرى طالبٌ موصليٌّ آخر وشرح: ژغغ أي زَرِّرْ، قوبجَة أي زِرّ، ساكوتَك، ساكو تركية، عن الفرنسية بمعنى الجاكيت بالإنگليزية ، أي السترة أو الرداء الذي يلفّ القسم الأعلى من الجسم. وإطباق الزرّ أو الأزرار علامة على احترام المخاطَب، وهو ما يريد المتّهَم من القيّم على المكتبة أن يفعل. لكن الصورة المازحة غابت عن عبد الحسين وغالبية المجتمعين، الذين لم يوقفهُم عن الضحك حتى فتح أبواب المطعم و تدفّقهم إلى الموائد .

والمطعمُ عالمٌ آخر. موائد تملأ مساحتَه الكبيرة، ومقاعدُ طويلةٌ على جانبي كل مائدة. يتجمّع الشباب على مائدة، وأمامها أو خلفها مائدةٌ تتجمّع فيها الطالبات. فالاختلاط في صفوف الدروس والمكتبة، وليس في المطعم الذي تتصدّرُه مائدةٌ للمدرِّس المُشرف والطالب المشرف على المطعم لذلك اليوم .

وفي المطعم منضدةٌ عليها "فونوغراف أبو النَصب" يشرف عليه المراقب لذلك اليوم ويختار الإسطوانات ذات الأغاني التي تشنّف أسماع المشغولين بالأكل وتبادل التعليقات على طبخة ذلك اليوم، وأغلبها تعليقات غير منصفة. أذكرُ مرّةً أن المائدة خلف مائدتنا كان فيها طالبة بصراوية فاجأت الجميع بصرخة استنكار: "ياع... شوفوا هذا دياكل السِمَج بالسجّين والشجّاخة" ، بالتشديد على الجيم الأعجمية بثلاث نقاط. كانت لهجَتُها البصراوية العذبة مما أثار ضحك الجميع. فعلّقَ طالبٌ من مائدتنا: "السمك ينوكل بالأيد. ليش هذا ستيك !" مثل هذا الجوّ المرح كان يسود ساعات الوجبات الثلاث يومياً.

إعتدل أبو غايب من مقعده الوثير، وقد بلغ به الاستمتاع بالحديث عن أيّامه في الكليّة بحيث واصل حديثه من دون أن أستحثّه على مواصلة الحديث. قال: مرّةً كنتُ أنا المُراقِب في المطعم، وكان المُراقِب يُكرَّم بالجلوس مع المدرِّس المُراقِب في صَدر المطعم ،عند باب المطبخ، ويُقدِّم له عيسى،كبير الطبّاخين صحناً مملوءاً مع كثير من اللحم ، مثل صحن المدرِّس المُشرِف. يومها جاءني صحنٌ من التمّن العَنبر، تعلوه

قطعة لحم كبيرة، نصفُها ليّة بيضاء. أنا أكلي قليل، قال أبو غايب، بلهجة متواضعة. فأحببتُ ان أكرم المدرّس المراقب إلى جانبي فرَفَعتُ "كردوشة الهَبرة السمينة" وحاولتُ وضعها علي تلّ التمّن العَنبر في صحن المدرِّس. فسارع الرجل بالاعتذار عن قبول الهدية وقال بلهجة مصرية التقطها من أيّام دراسته في القاهرة وبقي يطرّز بها كلامه . قال : شُكراً، شُكراً . أنا ما باكُلش غير اللحوم البيضاء. ونطق البيضاء بحرف الدال الضخمة. فقلتُ لهُ: إي هذي بيضاء. شوف الليّة ! قال: لا، يعني لحم الفراخ مش الغنم! فخَجِلتُ من جهلي في التفريق بين اللحوم الحمراء والبيضاء .عندنا في البصرة لحَم يعني لحَم، ودياي يعني دياي . بعد شنو هالطرگاعة!

ضحك أبو غايب كثيراًعلى حكايته في مطعم دار المعلمين العالية في تلك الأيّام ، وضحكتُ معه. ثم أرَدتُه استئناف الأحاديث الشيّقة فسألته : ولكن للطلبة في المطعم في تلك الأوقات طرائف غير حديث اللحوم البيضاء والحمراء والسمك بالشكّاخة. فهل تتذكر شيئاً من ذلك يا أبو غايب؟ قال بلى. إسمع هذه : كان بيننا في تلك الأيّام عددٌ من الطلبة من بعض البلاد العربية، وبخاصة من سوريا، من أصول عرب إسكندرونة ، وكنّا نحب هؤلاء الطلبة ونطرب لسماع لهجتهم ، وأغلبهم شاعر من رهط سليمان أحمد العيسى ، الذي تخرَّج قبل التحاقي بالدار. وكان هناك طالب واحد من تونس قليل الكلام ، لذا كنّا نستَحثّهُ لسماع لهجته. على الفطورسألناه: لماذا أزَحتَ البيض المسلوق عن صحنك؟ قال نحن لا نقول بيض ، بل نقول: أولاد جاج ،لأن البيضتين عندنا إسم... تعرف ايش! حتى البطارخ يعني الكافيار بلغة الأجانب لا نسميها بيض السمك بل "أولاد جاج ديال السمك." كان هذا التفسير قد أثار فينا عاصفة من الضحك لهذا التخريج اللغوي المؤدّب! حاول أحد نا تغيير الموضوع فسأل:هل عندكم شعراء مشهورون؟ إتّسعت عينان تونسيتان فصاح :طبعا عندنا أبو القاسم الشابي، صاحب: إذا الشعبُ يوماً أراد الحياة/ فلا بُدّ أن يستجيب القدَر... واستمرّ يتلو أبياتاً أخرى ونحن معجبون بما نسمع. فقال السائل: لا تؤاخذنا أخي، نحن بعيدون عن إنتاجكم الأدبي، وأحسَبُ أن هذه

أول مرّة نسمع بهاعن شاعركم الكبير، ونشكرك جميعاً لأنّك فتحت لنا باباً للتواصل الثقافي مع بلد عربي عزيز علينا جميعا.
قلتُ يا أبا غايب ، إرجع بنا للحديث عن أيامك في كويسنجق وصُحبة ذلك المصري – العراقي. قال: كان هذا الخريج فلسفة يريد أن يتفاخر عليّ أنه قد تكون لغته الانكليزية ضعيفة لكنّه يدرّسها لطلبة كويسنجق بنجاح لأنه "حدّ فاهم حاگة؟" ويزيد أنه يتحدّاني بمعرفتي في اللغة العربية شعراً أو نحواً وأنا خريج قسم اللغة العربية. مرّةً قال لي: إنسِب الأبيات التالية إلى قائلها واضبطها بالشَكل، وأعرِب ما تحته خطٌّ منها: "ومُدَعْشَرٍ في القَسطلين تَحشرَجَت/ شُرّابتاهُ فراحَ كالحَيعَيصَلِ". قلت له: الله يبلاك، منين اطلعتني بهاي السالفة؟ فقال: انا أيضاً لا افهمها! مرّةً تحدّاني بها واحد أزهري متحذلق جداً. كنّا معاً في توديع صديق مُشترَك فذهبنا إلى باب الحديد، يعني محطة القطار . وإذ كانت القاطرات تمرّ من أمامنا والركّاب يطلّون من نوافذ القطار و يلوّحون للجميع لمَحنا صاحبنا فهتفتُ به: گود لَكْ، بالجيم المصرية. ثم مرّ اثنان لا نعرفهما فهتف صاحبي: گود لكُما، لوجوب التثنية. قلتُ له يا أبا غايب ،ألا ترى هذه شويّة بايخه ؟ قال طبعاً ولكني كنتُ أجامل بيّومي أفندي لأبيّن له أنّي أفهم بالنكات كذلك .

قلتُ، أباغايب، حدّثنا عن بقية أيّامك في كويسنجق، و خلينا نرتاح من بيّومي أفندي شوَيّة. قال سمعاً وطاعةً. أنا بداتُ أتعب من الإبتعاد عن المدن الكبرى فتوسّط لي إبن حلال ونقلوني إلى مدرسة جيّدة في بغداد، إرتحتُ فيها كثيراً، واتّصلتُ بإحدى الصحف فعرضوا عليّ وظيفة مسائية في الجريدة بصفة مدقّق لغوي ، فأعجبني العمل الإضافي وما يدُرّه عليّ من چم فلس فوگ المعاش.
بقيتُ مع الصحيفة والعمل المسائي عدّة سنوات تعلّمتُ فيها الكثيرعن مهنة الصحافة وعمل المراسلين، وحضرتُ بعض المؤتمرات بصفة مراسل الجريدة، كما تعلّمتُ الكثير عن الشخصيات السياسية والمسؤولين في الدولة، وهو ما لم يكن من سبيل إليه في مهنتي في التدريس في الصباح. ثم فوجئنا جميعاً بقيام ثورة عبد الكريم قاسم فجر 14 تموز 1958 فزادت أعمالى في الجريدة مساءً. كان الجو العام يصعُب فهمُه بالنسبة اليّ. صرنا نسمع آراء في السياسة هي فوق مستواي الثقافي في

الشعر والنحو. لكنني التقطتُ شذَراتٍ من هنا وهناك ، من المقالات التي كانت تَردُنا إلى الجريدة ومن الراديو ومن مقابلات وأحاديث على التلفزيون، الذي توسّع الإقبال عليه منذُ بداية تأسيسه في بغداد، وأحسَبُ أنّه كان أول تلفزيون في بلد عربي أقامَته شركة پاي البريطانية عام 1956 . كانت أغلب المقالات التي تَردُنا إلى الجريدة عن عبد الكريم قاسم الذي صار لقَبُه "الزعيم الأوحد". وكانت أغلب المقالات تعدّد مآثر هذا العسكري العراقي الوطني الذي لا ينتمي إلى أي جهة أجنبية؛ وراح بعضُهم يذكر أنّه القائد العسكري الوحيد الذي رفض الانسحاب من موقعٍ كان يَحتلّه في حرب فلسطين عام1948، بل إنه واصل التقدّم ضدّ العصابات الصهيونية حتى جاءت الأوامر القاسية من بغداد. "ماكو أوامر"! وذكرَ بعضُهم أن هذا العسكري الكبير لا يملك داراً لسكناه، بل إنه يقيم في "مُشتَمَل" بالإيجار، ولا يَملك سوى راتبه الذي يوزّع منه القسم الأكبر على المحتاجين. وذكرَ كاتبٌ آخر أن الزعيم أثناء مروره في شارع أبي نواس في طريقه إلى "المُشتَمَل" توقّف عند عربة بائع خس واشترى منه "راسين خس" غمَرَهما البائع في تنكة ماء من الشط ، معتذراً أنه "ماكو حَنَفيّة". فأمر الزعيم بمدّ حَنَفيّة إلى موقع عربة بائع الخس. فلمّا مرّ به الزعيم ثاني يوم وجد "أبو الخَس" مُتَهَللاً وبيده "راسين خسّ مغسولات بالحنفية" مع كثير من الدعاء للزعيم ولجمهورية الكادحين!

لكن هذه الصورة المُبكِّرة في تفاؤلها كان يقابلها حالاتٌ من الوصولية والتمَلّق للنظام الجديد. بل راح بعضُهم يتحسّر على النظام الملكي البائد، وهي صفةٌ أصلحها اللغوي الكبير الدكتور مصطفى جواد في "قُل ولا تَقُل". قُل: العَهد المُباد ولا تَقل العهد البائد. ومن لم يجرؤعلى التحسُّر على "أيام الخير" فيذكرها في مقالات صحفية، راح يردّدها في المجالس الخاصة. من ذلك أن الملك غازي لم يكن يَملِكُ شيئاً إلى جانب راتبهِ ممّا اضطرّه يوماً لطلب سُلفة 10 دنانير من محاسب القصر، قبل يوم الراتب ! وثمة رواية أن نوري السعيد طلبَ قرضاً من البنك العربي ببغداد مقداره 2000 دينار لإجراء إصلاحات في داره. ولمّا تنوّع نشاطي في الجريدة طلبوا منّي "الدوام"في دار الإذاعة صباحاً،إذ كانت المدارس متعطّلة في تمّوز وبسبب الثورة كذلك، لكي أدقِّقَ لغة ما يصدُر من بيانات

وأخبار قبل إذاعتها. هنا رأيتُ أمثلةً من النفاق والوصوليّة من بعض من كان يأتي لدار الإذاعة لتقديم أحاديث وقصائد تمجِّد الثورة وتنال من العهد المُباد، وبعضُهم كان بالأمس من داعمي العهد الملكي وحكوماته المتعاقبة. كان في دار الإذاعة مجموعة من الشباب المتطوّعين لمساعدة موظفي الإذاعة بسبب ازدياد أعمالهم في الظروف الجديدة، وكان بينهم فتاة لبنانية تُساعد في الطباعة على الآلة الكاتبة. كما كان في غرفة مقابلة ضابط متخصِّصٌ بالطب البيطري، جاء بصفة ضابط أمن، فصار يتدخّل في أعمال الشباب وما يدقِّقون من أخبار قبل إذاعتها. صار هذا الضابط يطلب من فتاة الطابعة أن تأتي إلى غرفته لمراجعة ما أنجزت. لكن الفتاة كانت أذكى من ذلك البيطري وقالت له أنا آخذ توجيهاتي من الفريق مدير الإذاعة، فكفّ الشاطر أذاه عن الفتاة. وكان هذا البيطري يدّعي أنه هو الذي فاجأ نوري السعيد وأطلق عليه النار، فكافأته الثورة بتنسيبه ضابط أمن الإذاعة. ولكن بعد يومين جاء إلى دار الإذاعة العريف حسن، بالوشم الأخضر على أرنبة أنفه والإبتسامة العريضة ، وقد جاء به مسؤول كبير في الجيش كان شاهداً على قيام العريف حسن بإطلاق النار على نوري السعيد فأرداه قتيلاً، وأجرَوا مقابلة للعريف على التلفزيون ونشرت تفاصيل تلك المقابلة جميع الصحُف. وبعد أسبوع إختفى ذلك البيطري، وربما عاد للعناية بخيول الجيش، فحمدنا الله على غياب مصدر للإزعاج ما كان بنا حاجة لوجوده بيننا.

ثم طلبت منّي الجريدة الحضور، كمراسل صحفي، إلى جلسات محكمة الثورة التي تشكّلت بأمر عسكري لمحاكمة رجال العهد الملكي بتُهَم جاهزة من العَمالة للأجنبي واستغلال المنصب والنفوذ. كنت متهيّباً في الأيام الأولى من حضوري تلك الجلسات، ولكن ها أنا أمام وزراء سابقين ومسؤولين كبار، كنّا نسمع بهم ونراهُم في الصوَر وحسب . و شيئاً فشيئاً صرتُ أرى الجانب الكوميدي في تلك المحاكمات في ما ينطق به رئيس المحكمة من كلام لا يقوم إلاّ على تعليم ابتدائي، فقير الثقافة، مثل الاستشهاد بعبارة "من يعلّق الجرَسَ" وإنشاد "صوتُ صَفير البلبل" في محاولات مسرحية لاستثارة الضحك من الجمهور "المْكَوَّكْ" على ما بدالي . فقد كان رئيس المحكمة، بصوته العالي زيادة، يوجِّه جمهور الحاضرين للاستجابة لأحكامهِ وما ينطقُ به من حِكَم هي من ما كان يوجد

على ظهور أوراق "التقويم العربي الهاشمي" الذي كنّا نتابعه أيّام المدرسة الابتدائية. لاحظتُ أنّه كان يضع نظارته على عينيه فيصرخ الحاضرون بهتاف "عاش الزعيم". وإذا أزاح العوينات ولوّحَ بها ذات اليمين والشمال تعالت الأصوات المفردة بعبارة "يسقط العملاء والخَوَنَة". وإذا وَجّهَ كفّه نحو الجمهور كان ذلك أمراً بالسكوت.

ومن المشاهد المسرحية الفاشلة حادثة شهادة مُعَلّمة روضة أطفال جاءت بحكاية فَجّة، تُريد الانتقام من مسؤول في العهد الملكي، تدّعي أنّه كان يُضايقها. بدأ رئيس المحكمة يُحاضر عن الأخلاق واحترام العاملين من الشعب، والكادحين في سبيل العيش من ما لم يَكُن في حسابات رجالات العهد المُباد. لم أستطِع أن أجد علاقة بين كلام رئيس المحكمة العسكرية وبين اتهامات المُعَلّمة الشاهدة. و لما بدا أن الرئيس "خلَص نَصبَه" قالت المسكينة: إذا انتهى دوري يا سيادة الرئيس، هل أستطيع العودة إلى أطفالي؟ قال : طبعاً ،طبعاً. كم طفل عِندك؟ فقالت :أربعين! فصرخ الرئيس: عندك أربعين! أدرَكت المسكينة أن الرئيس لم يفهم جوابها فاوضحت: هي روضة أطفال صغيرة ونحن ثلاث معلمات فقط. فلَم يتوقف السيد رئيس المحكمة عن السؤال: يعني هذوله مو أطفالك ؟ يعني أنتِ مو متزوجه؟ فأحنَت المسكينة رأسها وقالت: لا يا سيدي! فصرخ الرئيس:

" إن الجمهورية العراقية لن تترك فتاة بدون زواج، و لا رجل بدون زواج، لأن هذا مخالف للطبيعة". فلَكَزَهُ المدّعي العام الجالس إلى شماله بهمسٍ سَمِعناه:" ولكن الزعيم غير متزوج." إستدرك الرئيس بصرخةٍ أخرى:

" إلاّ الزعيم وكبار رجال الوطن الذين نذروا أرواحهم لخدمة الشعب!"

مثل هذه النوادر لم تكن تُعرض على الشعب المُلتَصِق بالراديو والتلفزيون، لأنّ إمكانات الإذاعة يومَها كانت محدودة، وكان ما يجري في المحكمة يُسجَّل على شريط ويؤخذ إلى دار الإذاعة في الصالحية لعمل "مونتاج"

وتقطيع ما يراه المسؤول غير مناسب للعَرض على الشعب. مثل هذه النوادر لم تكُن معروفة خارج قاعة المحكمة، بناية مجلس النوّاب سابقاً، لذا كان عددٌ من أساتذتي في الكليّة يجلسون إلى ساعةٍ متأخّرةٍ كلّ مساء،

في مقهى في منطقة الكَسرة، ينتظرون عودتي لأ خبرَهُم بما حدث في المحكمة تلك الليلة؛ وربما كانت أحاديثي، كمصدرٍ موثوق، يتمّ تناقُلها بين الأصحاب في حلقات محدودة، لأنها لم تكُن تُنشر في الصحف ولا في الإذاعة. من أمثلة "مَلخيّات" الرئيس أثناء حديثه دون أي مناسبةٍ أو علاقةٍ بمحاكمةِ رجال العهد الملكي أنه سَمِعَ بأن الدكتور طه حسين قد نشر مقالاً بعنوان "دار السلام ليس فيها سلام" وكان يشير إلى الإعدامات بحقّ من يُعتبَرون خَوَنة للوطن والثورة. سأل رئيس المحكمة:" يا طه حسين، يا أعمى العينين، كيف تقول دار السلام ليس فيها سلام ؟هل استطعتَ أن ترى من خلف نظارتك السوداء؟ وكيف يقول أمثالك إن العراق يفتقر إلى أبسَط المواد الغذائية، مثل البيض الذي اختفى من الأسواق؟ فما ذَنبُنا نحن إذا كان الدجاج مريض؟ وكيف يدّعى أمثالك أن العراقيين لا يستطيعون الحصول على "الدوندَرمة"؟ أنا أؤكِّد لك أن العراقيين يأكلون "الدوندَرمة" صباح مساء، كل يوم"!

مثل هذه الأفاويه العبقرية لم تكُن تظهر في الصحف أو التلفزيون، بل كنتُ أنا أنقلها إلى أساتذتي المنتظرين ليلاً في مقهى الكَسرة، ولم يكونوا يَجدون فيها أي طرافة، بل مثالاً على الإنحدارفي الفكر والذوق.

قلتُ له: يا أبا غايب ، كيف كانت الأوضاع في الكليّة وأنتَ حتماً لم تنقطع عن زيارتها وتفقّد شؤون من بَقيَ من أصحابك الموظفين فيها، من أمثال عبد الحسين النجفي، زعيم المكتبة، وذلك النجفي اللطيف الآخر، مسؤول الصيدلية في القسم الداخلي، وطبعاً أساتِذتُك القُدامى الذين بقيتَ تَحتفظ بمَوَدّتِهم ، وبخاصة جماعة الانتظار في المقهى الليلي؟

قال: كانوا جميعُهم في غاية الطيب والمُجاملة، ولو كان بعضُهم لا يستطيع الحديث بصراحة أو التعليق على ما يجري في البلاد، خوفاً من التعرّض لأذى من الوشايات المُغرضة. لكن كان هناك حتماً بعض من يُحاول التصرُّف بشكل ينمّ عن التخوّف والحذَر. أذكرُ واحداً من هؤلاء كان يُبالغ في إظهار الولاء للعهد الجديد، ولو أن أحداً لم يَطلُب منه ذلك. مرَّةً كنتُ في زيارةٍ صباحيةٍ للكليّة مَبعوثاً من الجريدة للاطلاع على أوضاع الكليّة. يَومَها كان الاحتفال بعيد ميلاد الزعيم الأوحد، فجاءت الأوامر بخروج الجميع بمسيرة احتفالية باتّجاه وزارة الدفاع، في منطقة الميدان، والاستمرار في شارع الرشيد. وَجَدتُ أساتذتي مُرغَمين

مُحرَجين على المسيرة. فأسرَعتُ لمرافقه الدكتور مصطفى جواد ،وسرتُ مَعَهُ وهو يحدّثني أحاديثه اللغوية التاريخية الطريفة. فلمّا تجاوزنا بناية وزارة الدفاع، وعَبرنا موقع "طوب أبو خزّامه" قال لي الدكتور مصطفى جواد: أنا تَعِبتْ وعَطِشتْ. خلّينا ندخل إلى گهوة البلديّة ونشرب طاسة ماي و نطلع من الباب الثاني المؤدي إلى "سوگ اليَمَنجيّة"وهناك نضيع عن المسيرة. وهكذا تخلّصنا من تعب المسيرة. وتسَللتُ أنا إلى بناية الجريدة ولم أدرِ أين ذهبَ الدكتور مصطفى جواد بعد دخوله في ذلك السوق الذي لا أعرف كيف يتفرّع وأين ينتهي المتجوِّل فيه قبل الوصول إلى شاطئ النهر.

قلتُ يا أبا غايب، ذكرتَ الوصوليين والمنافقين، وهو ما يوجد أحياناً في جميع الانقلابات العسكرية التي سمعنا عنها في بعض البلاد في تلك الأيام. هل وَجدتَ أمثلةً طريفةً من ذلك في الكليّة المفروض أنها تضُم نُخبةً من أصحاب التعليم العالي والتخصّص؟ قال بلى . كان هناك شاب يحمل شهادة عُليا من جامعةٍ غير مُعترَفٍ بها، لكنّه وَجدَ طريقةً خاصّة للتعيين مدرِّساً في الكليّة. كان ذلك الشاب قدعاد من البلد الأجنبي بعروسةٍ شقراء فاقعٌ لونُها تُسِرّ الناظرين. جاء بها إلى الكليّة ذات يوم ولم يُعِد الكرّة بسبب ما سَمِعَهُ من تعليقات. أحسَبُ أن تلك الحادثة قد تسبّبت له بنوعٍ من الاضطراب النفسي، فراح يختصر الأحاديث مع الزملاء ويُكثِر من الابتسام واصطناع الفكاهة، لكنّ عَينيهِ كانتا تبحثان عن شيء في كلام الآخرين او تصرّفاتهم ليعلِّق تعليقاتٍ غامضةً مما جعل الآخرين يتجَنّبون الاقتراب منه أو الحديث معه. وبعد فترةٍ قصيرةٍ غاب هذا الشاب عن الكليّة وسمعنا أنّه تعيّن "مدير عام" في مؤسّسةٍ صناعيةٍ لا نحسَبُ أنّه يفهم شيئا من شؤونها. لكن الزملاء أحسّوا بالراحة من غياب هذا "الأجنباني" لأنّهم كانوا يتهامسون خائفين أنّه قد يتسبّب بأذى لهم لقُدرته على الوشايةِ بهم إلى ذوي السلطة، بما قد يخترعُه عنهم من تُهَمٍ انتقاماً لرفضهم استقباله إجتماعياً.

قلتُ يا أبا غايب، أنا سمعتُ عن آخرين في عهد انقلابٍ عسكريّ لاحِق على العهد الذي تتحدث عنه . هل سمعتَ بحكاية "أبو طَبَر"؟ نحن اليوم بعيدون عن الزمن الذي تتحدث عنه، ولكن ما سمِعته أنا أكثر خطراً من

حامل شهادة عُليا من جامعةٍ غير مُعترفٍ بها ويريد أن ينتقم من مُجتمعٍ هو مُجتمع الكليّة.
قال أبو غايب: أنا كنتُ خارج العراق في الفترةِ التي كان فيها "أبوطبَر" يهدّد حياةَ الناس في بيوتهم كلّ ليلة. ويبدو أن الحكومة لم تستطِع الإمساك به مما جعلَ بعض الناس تقول إنه من صُنع الحكومةِ نفسِها لإشاعةِ الذُعرِ بين الناس! عِلمُها عند ربّي؛ ولكن الخوف يؤدي إلى أنواع التصَوّرات المَرَضيّة في الغالب.
واستمر أبو غايب بحديثٍ مُتشنِّج ، يتوقّع منّي أن أحدّثه بما سمعتُ أثناء غيابه في إحدى دول الخليج. قلتُ يا أبا غايب، كان الناسُ كلّ صباح يتحدثون عن ما فعلَ "أبو طبَر" في الليلة السابقة، وكيف "شقّ طريقَه" بتلك الفأس المخيفة ودَخل أحد البيوت وقتلَ أوّل من رأى "بضَربَةِ طبَر" قاتِلة، لكنّه لم يَسرق شيئاً من الدار. هذا ما جعل الناس ترتعِب من هذا القاتل العجيب، والحكومة لا تفعل شيئاً تِجاهَه!
وقد تسبّب رُعب "أبو طبَر" بظهور وصوليّ من نوع آخر في الكلية. كان بين المدرسين واحدٌ يحمل الدكتوراه من أميركا لكنه كان فاشلاً في التدريس، يضحك عليه الطلبة لتصرّفاته الغريبة وحديثه عن نفسه وأسرته ممّا لا علاقه له بموضوع الدرس. أراد هذا الدكتور أن يثبتَ شطارته فذهبَ إلى مديرية الأمن وقال لهُم إن أهل الحيّ الذي يسكن فيه قرروا تشكيل فريق رقابة ليلي للحراسة وتعقّب "أبو طبَر" وهو يريد الالتحاق بهذا الفريق، لكنه بحاجة إلى مسدّس. فأعطوه ماطلب. وصار كلّ صباح يدخل إلى غرفة المدرسين ويرمي حقيبة كتبِه جانباً لكنه يضع المسدس أمامه ليَراهُ الجميع. فازداد تخوّف زملائه لأنه صار يتحدّث بشكلٍ فجّ عن علاقاته بمكتب الأمن العام واطّلاعه على تقارير عن شخصيات مهمّة في البلد و في الجامعة كذلك. صار الجميع يتوقّع الشرمن هذا الأهبل، فصاروا يلا طفونه بكلامٍ معسول مغشوش تجنّباً لما قد يصدرُ منه ضدّهم. ومالبث هذا اللوذعي أن عُيِّن رئيساً للقسم، تجاوزاً لجميع الأعراف الأكاديمية، فازداد التوجّس من ما قد يصدر عنه من أذى. ولكن ربّك حميد، فقد حصَل هذا البطل على وظيفة في خارج العراق فارتحل إلى غير رجعة، وارتاح منه الزملاء.

قال أبو غايب: سمعتُ وأنا خارج العراق عن تجاوزات مماثلة أو أكبر من ما ذكرتَ عن "أبو مُسدّس" في متابعةٍ مفترضةٍ للمدعو "أبو طبَر". كان في الكلية أيّام دراستي قِيمٌ أكاديمية في تعيينات رؤساء الأقسام والعمداء والمراكز الإدارية في الجامعة. لكن ما كان يصِلنا من أخبار الكليّات والجامعة يصعُب تصديقه.

قلتُ: صحيح يا أبا غايب. فبعد خلاصنا من "أبو مُسدّس" تعيّن رئيس جديد للقسم، فاشلٌ آخر في التدريس، لم ينشر في سنواته الأربع بعد عودته من جامعة أمريكية يحمل الدكتوراه أيّ دراسة أو وَرقة بحث، ولو من الأوراق التي كان يكتبها أثناء دراسته كما يفعلُ عددٌ من الذين حصلوا على ترقيات علمية. كان رئيس القسم الجديد مُتجَهِّم الوَجه دائماً، وكانت مؤهّلاته غير العلمية أن والده كان مُعلّماً في قريةٍ زراعيةٍ تقع في أعالي نهر دجلة، وكان زميلهُ في مدرسة القرية هذه رئيسُ الدولة الحالي. ما شاء الله على هذه المؤهلات! لم يكن أحد من الزملاء مقتنعاً بهذا الشخص رئيساً للقسم العلمي. قال أحد الزملاء المعروف بتعليقاته الظريفة: إذا أعطيتم مِعزَتين لهذا البَني آدم لما استطاع رَعيَهما في قريته المجاورة، فكيف سيرعى شؤون قسم علمي في الكليّة؟ هكذا كان حالنا يا أبا غايب، وتقول لماذا لايُذكر اسم جامعتنا في الدوريات العلمية العالمية بين جامعات البحث العلمي وإنجازات الباحثين؟

وثمّةَ مثالٌ "أقمَش" من هذا بكثير يا أبا غايب، يصعُبُ جِدّاً تصديقه. فقد فوجيءالعاملون في وزارة العدل بتعيين شاب حديث العهد بالتخرّج في كليّة الحقوق بمركز أمين عام للوزارة، بدعوى أنه حاصلٌ على شهادة عليا في القانون من إيطاليا، قال إنّها دكتوراه. بدأ الشك والتساؤل: متى كان العراقيّون يدرسون في إيطاليا، التي قال الفهلوي إنه قضى فيها سنتين فقط وجاء بشهادة مكتوبة بالإيطالية قرأها أحدهم:" دبلوما دي دوتّوراتو". تبيّن لاحقاً أنها تعني" دبلوم دراسات عليا". "بدأ الفار يلعب بعبّ" الحقوقيين، على رأي المَثَل، وذهب بعضهم إلى عميد كليّة الحقوق المعروف بصراحته الجارحة، وسألوه عن هذا الدكتور الطلياني، فكان جوابه المطرّز بالشتائم أن هذا البني آدم يدّعي صِلَة نَسابة مع "الأخ الأكبر" وقد تخرّج بدرجة "مقبول" ولم يحصل على بعثة، بل سافر إلى إيطاليا على حساب أهله، والكل يتساءل: كيف تعلّم الإيطالية التي لاتُدرّس

في العراق، واستطاع بسنتين أن يحصل على شهادة، ولو أنها دبلوم؟ ثم إنّه مؤخّراً إتّصل بنا طالباً توصية للذهاب لدراسة الدكتوراه. خابرني هذا الأسبوع سائلاً عن التوصية التي طلَبَها فقُلتُ له بصوتٍ عالٍ أمام عددٍ من الأساتذة: يَوَل تريد دكتوراه ثانية؟ والدكتوراه الإيطالية شتسوّي بيها؟ فقال "مزّق طلبي وانسَ الموضوع رجاءً." ما رأيك يا أبا غايب بهذه السالفة؟
وعلى المستوى الشخصي، يا أبا غايب، كانت الأحاديث في الجلسات الخاصة تدور حول بعض العائدين بالدكتوراه من الخارج، صُحبةَ زوجات أجنبيات كنّ يكتُبن لهم أبحاثهم الجامعية باللغة الأجنبية التي لم يُتقِنوها قط، فكسِبتهُ تلك الأجنبيةُ زوجاً وحصل هو منها على جنسية بلدها.
ومالبث هذا الدكتور أن التحَقَ بجهاتٍ معيّنة حتى أُعطيَ وظائف إدارية في مواقع حسّاسة وراح يتقلّب في نعيمها . وبعد فترةٍ أصدرت الجهات العليا قراراً يخصّ حَمَلة الجنسيّة الأجنبية ممّن يشغل وظائف حسّاسة في الدولة مَفادُه أن العراقي في مركزٍ حسّاس في وظيفة في الدولة أمامَهُ خياران اذا رَغِبَ في الاستمرار بتلك الوظيفة: إمّا أن يتخلّى عن الجنسية الأجنبية أو يطلِّق زوجَتَهُ الأجنبية فسارعَ صاحبُنا لاختيار الأمر الثاني، مُتنكِّراً لأيام "الخبز والملح" والخدمات التي أوصلته إلى الدكتوراه. و في السنة اللاحقة عُيِّن صاحبُنا سفيراً في دولةٍ غربيةٍ لم يذكرهُ فيها العراقيون بخير. وبعد فترةٍ من التمتّع بالمنصب المرموق تنكّر صاحبنا لمن أوصله لذلك المنصب مثلما تنكّر لزوجته الأجنبية من قبل، و هربَ إلى بلدٍ آخر حاملاً معه خزينة أموال السفارة، تاركاً المفتاح على مكتبه. وفي اليوم اللاحق جاء الموظفون في السفارة ليكتشفوا ما حصل، ولم يستطيعوا الاهتداء إلى مكان اختفاء سيادة السفير. ودارت الشائعات والأحاديث الساخرة في ذلك البلد الأجنبي مما لوّث سمعة البلد الذي كان يُمثلهُ سعادة السفير.
قال أبو غايب في حسرةٍ وألَم: هل وصل الأمر بالعراقي إلى هذا الحدّ من اللؤم ونُكران الجميل؟ قلتُ إسمع هذه يا أبا غايب : سَمعنا عن آخر أرسلتهُ الوزارة ببعثةٍ إلى بريطانيا للحصول على الدكتوراه في الأدب العربي، وهو لا يُحسن نطقَ كلمتين باللغة الإنكليزية فتساءلنا: لماذا لا يرسلونه إلى مصر مثلاً أو أي بلدٍ عربي فيه الكثير من المراجع

والنصوص في الأدب العربي؟ لكن المحروس عاد من بريطانيا بعد سنوات يحمل بيمناه شهاده الدكتوراه، ويتأبط بيُسراه عروساً من " بلاد برّه" تغطّي وجهها ألوان قوس قزح، ويغطّي شعر رأسها لونٌ لا يُخفى ما تَحته. بدأ المحروس يُطعِّم كلامَه بأنصاف جُملٍ إنگليزية تجأرُبالشكوى من سوء اللفظ، فصار موضع تندّرٍ بين زملائه .و لم يَطل الأمر بهِ أكثر من سنةٍ، فأعاد البضاعة إلى أهلها وابتلى أخرى من بني جِلدته، وانقلب إلى أهلهِ يتمَطّى.

واسمع هذه الثالثة والأخيرة لأنّك قد تَعِبتَ من هذه "السوالف الفاگسة". هذا طالبٌ كان في الكليّة يحاول جهدَه أن يتقرّب من الطالبات. في أيّامنا كان ذلك غير مقبول، لكن صاحبنا كان يصرّ على مَسكِ يدِ الطالبة ويشدّها إلى الأسفل لأنه كان قصيرَ القامة بشكلٍ واضح، و كأنّهُ يريد أن تنزلَ الطالبةُ لتوازيه في طوله. حصَلَ هذا السعيد على بعثةٍ دراسيّةٍ إلى بريطانيا ،وهناك تعلّق بأوّل كاتبة طابعة في كليّته استجابت له . كانت الفتاه من أسرةٍ متواضعة لها خمس أخوات فاتَهُنّ قطار الزواج. صارت الفتاة تساعده في دراسته وتصلّح له ما يكتب من أبحاث، بل كانت تكتبُ أكثرها له، كما ذكرَ بعضُ زُملائه. كانت الفتاة جميلةً فعلاً فأوحى لها بتردّد أنه يميل اليها وينوي أن تصيرشريكة حياته " على سُنّة الله ورسوله" ! وافقت الفتاة على الفور وبارك لها أهلوها وشقيقاتها. لم يكُن الدين المسيحي ولا دينُه المسلم موضوع بحث على الإ طلاق. فقبل تخرّجه ونيل الشهادة تم الزواج، قيل في الكنيسة، لكنّه ادّعى أن الزواج تمّت مراسيمُه في المركز الإسلامي في تلك المدينه البريطانية. لم يُناقِش الموضوع معه أحدٌ ممّن نعرف، لكنه "بقِلّة انتباه" صرّح مرةً أن الفتاة سألته لماذا لا يبقى في بريطانيا حيث العيش أفضل من ما تسمع عن العراق البعيدة عن أهلها ومحيطها؟ قال "بكلّ عَبَط" لأنّه متعاقدٌ مع حكومته على أن يعود للخدمة في العراق وإلاّ عليه أن يدفع جميع ما صُرِفَ عليه في البعثة. ولكن، أضافَ بمزيد من "العَبَط ،"بعد إكمال 25 سنة من الخدمة، يُمكن أن يَطلب التقاعد، وعندها يعودان معاً للعيش في بريطانيا! إقتنعت الفتاة بهذا التدبير "اللاإنساني"، وقالت مازحةً: إذا لم تستطع فعل هذا، هل سيكون نهاية زواجنا؟ أجاب الفهيم ، بما يُشبه

الابتسامة: بلى، هذا ما سنفعل. وعاد الزوجان، وتعيّن هو في الكليّة، وهي وجدت لها وظيفة كاتبة طابعة في شركة النفط. ثم رزقا ببنات وبنين فلمّا اكتمَلت السنون الخمس والعشرون طالبَت عروسُ الأمس بتطبيق شروط الأمس. وبعد أخذٍ ورَدّ انتصرت صاحبة اليد العُليا وتركت زوجَ الأمس وعادت إلى أهلها. وسرعانَ ما حصلت على وظيفة في إحدى دول الخليج، حيث سبَقتها ابنتُها إلى وظيفة مُماثلةٍ هناك ، مع زوجٍ خليجي، وعاشوا عيشة سعيدة.
أمّا ماذا جرى لصاحبنا البطل، بعد ذلك الطلاق الدرامي، فلا أحد يعرف!

تمَلمَلَ أبو غايب وقال: أما حان دَوري للحديث عن مفاسد أخرى في البلد، خارج جامعتك و حملة الشهادات العليا المشكوك في أمرها؟ أنا بحُكم عملي في الصحافة الذي تعلّمتُ فيه عن الناس والحياة أكثر ممّا تعلّمتُ من تدريس النحو والبلاغة، تيسّر لي الاطلاع على ما لم يكُن ميسوراً لغيري. قلتُ مَعكَ الحق يا أبا غايب. هاتِ ما عندك. قال :حدّثني زميلٌ كان معي في الكليّة أنّه كان يُدرِّس بعض الساعات في كليّة مسائية افتُتِحت مؤخّراً، والتحَق بها طلبةٌ أغلبُهم موظفون وَجَدوا في التدريس الجامعي المسائي فرصةً لنيل شهادةٍ جامعيّةٍ . قال : كان بين المدرّسين رجلٌ مُحترَمٌ، شاعرٌ ورسّام. لكنّه كان ذا قناعةٍ سياسيّةٍ عروبيّةٍ قوميّةٍ لا تتعارض مع نظام الحكم في البلاد في ذ لك الحين. وكان لدى صاحبي سيارةٌ مُقَرقَعة، يعودُ بها إلى دارهِ الواقعةِ في أطراف العاصمة بنهايةِ الدوام المسائي، بعد التاسعة. طلبَ ذلك الأستاذ الشاعر الرسّام أن يوصِلَه صاحبُ السيارة إلى نقطةٍ قريبةٍ من داره في منتصف الطريق، و خاصّةً في ليالي الشتاء الباردة، التي يصعُب فيها انتظار باص الأمانة. رحّب صاحبي بتقديم هذه الخدمة لذلك الأستاذ المُحتَرم وتكرّرت التوصيلات.

وبعد حوالي أسبوعين جاء اثنان من ذوي الشوارب الهمايونية يسألون رئيس القسم في الكليّة المسائيّة عن المدرّس فُلان الفُلاني فارتَعَبَ المسؤول الذي أدركَ هُوية الرجلين، من الماركة المسجّلة على وَجهَيهما، فاضطُرّ أن يدلّهما على صاحب السيارة. فجاءا إليه وقالا له باختصار: نحنُ نراقبُك يومياً وننصحُك بعدم توصيل ذلك الرجل في طريق عودتك

إلى داركَ مساءً. أدرَكَ صاحبي فوراً هُويّة الرجلين، ولم يَجرؤ على السؤال عن السبب ومن صاحب ذلك الأمر . لكن الأستاذ كان يُراقِب من إحدى غرف الصفوف هذين الرجلين، فأقبل على صاحبي قائلاً: أنا أشكرُكَ على توصيلاتك ، لكنني هذا المساء مدعوٌّ عند صديق سيأخذني إلى داره بعد التاسعة، فشُكراً.

بعد ذلك المساء غابَ الأستاذ المتّهم-البريء لمدّة أسبوعين، وعاد بعدَهما ولم يجرؤ أحدٌ على الاستفسار عما حدث، وعن غيابهِ، لأن السلامة مطلوبة!

قلتُ يا أبا غايب، هذا أشبه بالأفلام البوليسية، يصعُب عليّ تصديقهُ لو صدَرَ عن شخص غيرك. ولكن كيف كان شعور الآخرين في مرافق الدولة أو في الحياة العامة عند سماع مثل هذه الحكايات؟ قال: إسمع، هذه "أقمَش" كما تقولون في الموصل. فجأةً نشرت الصحُف خبر فَصل 22 من أساتذة كليّة الطبّ وكليّة العلوم، بعضُهم لدَيه خدمةٌ جامعيّةٌ تكفي للحصول على حق "التَمتّع بالتقاعد" ، ويالها من عبارةٍ من السخرية السوداء! بعضُهم نقلوا إلى وزاراتٍ أُخرى، و بعضُهم نقلوا إلى وزاراتٍ لا مجال لهم فيها على الإطلاق. مثلا نُقلت أستاذة في التربية إلى وزارة الصناعة! يا تُرى هل وزارة الصناعة تفتقر إلى التربية، كما تساءل أحدهم! بوصفي مراسل صحفي، قال أبو غايب، طُلبَ منّي الحضور إلى وزارة الصناعة لتغطية مؤتمر للوزير حضَرهُ عددٌ من الصحفيين الأجانب. بعد المؤتمر تقدّمتُ إلى السيّد وزير الصناعة بأسئلةٍ لنشرها في جريدتي. كان السيّد الوزير شديد الانفعال في إجاباته وقال: "دَزّولي 22 طبيب ومهندس! هذول إيش أسوّي بيهم؟ " ما كان لي أن أجيب ولا أن أعلِّق إلاّ بعبارة مُحايدة: الله كريم، لابُد ما تنحَلّ."

هل تُريد أيّها المصلاوي المو متعَصّب أن تسمع قصّة أخرى، "لسّه أقمَش من ذاكولي"؟ قلت يا أبا غايب، ما معنى ذاكولي بلغتكم البصراوية العمايرچية؟ قال أبو غايب: ألا تُدرك أن معناها أولئك؟ طيّب، هات يا أبو غايب. قال: روى لي صديق أكبر من عُمري سبَق أن تخرَّج في كليّة الحقوق، كان له فيها أستاذ عالم فاضل ،من أوائل الحاصلين على الدكتوراه من السوربون، طلبَتهُ الجهات العليا ليكون مستشاراً قانونياً

إضافةً إلى وظيفته في التدريس في كليّة الحقوق. وَقتَها تأسّس في الكليّة منهاج ماجستير في الحقوق بإدارة ذلك الأستاذ الفاضل. وبعد مدّة صدر أمر الجهات العليا بتعيين ذلك الأستاذ المستشارسفيراً في بلد أوروبي مُعيّن. لكن حدثت مفاجأة في كليّة الحقوق، من الصعب تصديقها لو رواها لي غير ذلك الصديق الأثير. قال : في نهاية أيّام الامتحانات لذلك العام، تفاجأ الأستاذ بشخص يسير وراءه في الكليّة قائلاً من وراء ظهره: أستاذ ، أستاذ، أشوف ما حطّيت لي درجة في الإمتحان الأخير! سأل الأستاذ :أنت منو إبني؟ أجاب: أنا فلان الفلاني. قال: أنت الذي قدّمت دفتر امتحان فارغ من أي جواب؟ قال: نعم لأننا مكلفون بمسؤوليات حزبية و لا وقت لنا للدراسة! قال الأستاذ ولكن كيف تريد النجاح والحصول على الماجستير بلا دراسة؟ أجاب ذلك الشخص بكل صلافة: "أنتَ غاح اتغيح سفير بلندن؟ نشوف." وبعد أسبوع ظهر في أسفل الصفحة الأولى من مجلة أسبوعية تنشر في ذلك الموقع أخبار الفنّانات المتعاقدات لتقديم حفلات رقص، في بعض البلاد المجاورة. هذا الخبر غير فنّي ولا علاقه له بالرقص، لكنّه ظهرهكذا: قررت الجهات العليا إلغاء ترشيح فلان الفلاني لمنصب سفير وإلغاء شهادته العلميّة وفَصله من الوظيفة وتنزيل راتبه التقاعدي .

قلتُ يا أبا غايب، هل أنتَ مُتأكّد من صحّة ما سَمِعتْ؟ قال: هل تَشُكّ في روايتي أو في سلامة سمعي؟ قلتُ حاشا وكلاّ! مَن يستطيع إلغاء شهادة دكتوراه أصدرتها السوربون؟ وكيف رتّبوا سلسلة العقوبات هذه؟ قال أبو غايب :أخشى أن لا تصدِّق ما حدثَ بعد ذلك بسنوات، فهو ممّا لاتقوى حتى أفلام الرُّعب على تصويره.

قلتُ يا لطيف! أبا غايب، أنا گلبي نَحلانْ، كما تقولون في البصرة. أسرع بالخبر الفظيع ! قال: كان ذلك الأستاذ متزوّجاً من سيّدة فرنسية مُحترمة، كانت تدرّس الفرنسية في الكليّة عندنا. وكان الأستاذ ينتظرها بباب الكليّة بعد الدوام ليوصلها إلى البيت. وبعد مُدّة تُوفِّيت والدة الزوجة التي كانت تقيم معهما، وكانت قد أوصت أن تُدفَنَ في قريتها في جنوب فرنسا.

وأيامَئذٍ كان السفر ممنوعاً، فتقدّم الأستاذ إلى الجهات العُليا للسماح بنقل الجثمان إلى فرنسا صحبة الأستاذ وزوجته. لكن الرفض جاء سريعاً لأن "السفر خارج البلاد ممنوع"، مهما كانت الأسباب! هل تتصور أن يبلغ

الحِقد إلى هذه الحدود، ولأي سبب؟ ومَن المُحرِّك؟ وهل بوسع طالبٍ فاشلٍ أن يتسبّب بكل هذا الإجراء غير الإنساني؟ أم أنّ "الجهات العُليا" لا عِلمَ لها بما تفعله "الجهات الدُنيا" في أيّ نظام حُكم في العالم؟ وهل هذا تجاوزٌ يُمكن تسويغهُ، وبأيّ مَنطقٍ أولا منطق على الإطلاق؟

قلتُ له يا أباغايب "يزّي قَحَرْ" كما تقولون في البصرة... "هَلبَتْ عدَّك سوالف شويّه تفوّخ الگلبْ، سوالف على ذول الحفّاي اللي صاروا "مَسعولين" كما تقول نَشميّة أم البامية، بالدربونة مالَت باب لاغه..." قال : إسمع هاي: هذوله يوم اتنَشنِشَو بعد ما يگعدون بالگهاوي مالت علاوي الحلّه، لوبالنزيزة مالت خضر الياس. سَوّوا لْهم "نادي النُخبة" في منطقه عَرَصات الهنديّة، لا يدخله إلاّمن رَبعْهُم. مَرّة بوَصفي صُحُفي مكلّف بعمل تقرير عن هذه المَعْلَمَة الحضاريّة والإنجازات غير المسبوقة، دخلتُ هذا النادي ذاتَ ليلة بين سُحُب كثيفة من روائح الخُمور الغريبة، فوجدتُ المكان مكتظّاً بموائد مُثقلة بقناني غريبة الأشكال والألوان، والجالسون حولها يدخّنون السيگار والپايپ بالتنباك الأجنبي غريب الرائحة. إسترعى نظري أحد الجالسين وحدَه إلى مائدة الشراب، وقد "لفّ رِجِل على رِجِل" و كان يحرّك قدمَه المرفوعَة اللابسة حذاءً يبدو عليه أنّه مُستورَد من بلد أجنبي، يتدلّى منه خيط پلاستيك معلّق به وَرَقة ملوّنة، عليها كتابة بلُغَةٍ أجنبية، كأنه كان يريد أن يَستَرعي الأنظار الى حذائه المُستَورَد الجديد، بدليل أن الماركة ما تزال معلّقةً به. و لم يَخطُر على باله أن الماركة يجب نزعُها عن الحذاء عندما يبدأ استعمالُه! هل رأيتَ أقمَش من هذا يا مصلاوي؟ غَلبَني الضحك وقلتُ هذا معقول يا أبا غايب ؟ قال لا مو معقول لكن هذا ما رأيتُ رأي العين من هذول المو شايفين ،عبالهُم هذا لبس الأفندية و"الطبَقَة العلّيْوي" على رأى ذلك الممثل المصري. لكن المستوى العقلي أوالحضاري غير موجود عند الرَّبع. تصَوَّر أن غالبيّة من يمسكون بزمام الناس في ذلك العهد لم يتجاوز مرحلة التعليم الإبتدائي ،أو أن بعضهم كان "جندي إجباري" لكن قرابتَه العشائرية بأحد "المسعولين" بالحكومة أعطتهُم القدرة على التحكّم بمصائر البَشَر. ورَوى لي صديق أن أحد المدرّسين في كليّتنا عاد من سفر الصيف، فأخبَرَه زملاؤه عن صدور تعليمات لأصحاب الآلات الطابعة أن يأخذوا طابعاتهم

إلى مديرية الأمن العام لتسجيل تلك الآلة الطابعة، مع أوصافها الكاملة ، وعيّنة من طباعتها، وخِلاف ذلك توجد عقوبة صارمة على المُخالف.
ذَهَبَ صاحبُنا يحمل آلةَ طابعةٍ صغيرة، كان قد اشتراها مُستَعمَلةً يوم كان طالب بعثةٍ في بريطانيا، و حاول تعلّم استعمالها، لكنّه لم يُفلح، وبَقيت الطابعة عندَه لا يستعملها إلاّ مرةً في السنة، لطباعةِ أسئلةِ الامتحان النهائي بالإنكليزية، التي يجب أن تبقى سرّيّة، وهو المسؤول عن سرّيتها.
ذهبَ صاحبُنا إلى مديرية الأمن، يحمل طابعتهُ وشرحَ "للمسعول" ظروف الاستعمال المحدود لتلك الآلة، وكونَها لا تشكِّل أيَّ خَطرٍ على أحد. فكان جواب الفهيم "ليش ما يْصيغ الويحد يعمل منشورات ضد الحكومة ويغيح الويحد يوزعها بلندن؟" ولفظ لندن بألِف طويلة: لندااان.
قال صاحبنا لم أستطِع مغالبة الضحك وأرَدتُ أن أقول لا، الأسهل والأرخص تكليف أحد في لندن أن يقوم عنّي بالعملية. لكنّي خشيتُ أن لا يفهم ذلك الفهيم سخريتي الخطيرة، فانتَهَرني قائلا: جاوب عندما تُسأل فقط .ثم أخذ طابعتي المسكينة قائلا: راجعنا بعد شهر.
ومثل هذا المستوى في التصرّف الإداري، تذكّرتُ الآن حادثة طريفة أُخرى. رواها لي صديق آخر كان يعمل في إحدى دول الخليج بموافقة رسميّة من الحكومة. وفي إحدى المناسبات عاد هذا الرجل وزوجتهُ إلى العراق، وأحسَبُ أنّه كان بمناسبة العيد. وكان السفر خارج العراق ممنوعاً في تلك الأيام. سلّم الرجُل جوازَسفرهِ و جَوازَ سَفرِ زوجتهِ ووقفَ جانباً ينتظر تسلّمهُ مختوماً. لكن انتظاره طال. وخلا المطارُ من المسافرين القادمين. توجّه صاحبي إلى اثنين من ذوي الشوارب إيّاها، إذ كانا واقفَين إلى جانب شبّاك موظف الجوازات، الذي غمَزَ للرجلين غَمزةً فهماها. فلمّا توجَّهَ صاحبُنا ليسأل عن جواز سفره، سارَع أبو الشوارب بإخراج علبة سگائر روثمان من جَيبهِ وأشعلَ سيگارة. فلما سُئل عن جواز السفرقيلَ لهُ: راجع الأمن غداً لتسلّمِهِ. خشيَ صاحبُنا أن يكون ثمّةَ مشكلة. تبرّع الرجل الثاني بتصفّح جواز السفر، قائلاً بلهجَةِ من اكتشف سِرّاً: هذا وين رايح!هذا رايح لندااان. فَوّضَ صاحبُنا أمرَه إلى الله وغادر المطار بانتظار اليوم الثاني، ليراجع مكتب الأمن ويستفسر عن مصير جَوازهِ. قالوا له: أدخُل إلى قاعة المحاكمة وانتظر حتى ينادوك. لابُدَّ ممّا ليسَ منه بُدُّ! بدأت المحاكمة: أنتَ سافرتَ إلى أوروبا، وتعرف السفر

ممنوع. غرامة 50 دينار. وانتهت المحاكمة. 50 دينار غرامة سفر عراقي يعمل خارج العراق بموافقة رسمية وسافَرَ من خارج العراق لا من داخله؟ 50 دينار بلا مناقشة لكل جواز!
قلتُ لهُ يا أبا غايب، هذه القصص محزنة. ما عندك غيرها قصص عن سخافة وقلّة عقل بعض "المسعولين"؟ قال إسمع هذه: في أول سنة من الحرب مع إيران، وحتماً أنتَ تتذكّر تلك الأيام! ثانيةً ، بوصفي صحفي كنتُ أستطيع الحديث المكتوم، حتّى مع الوزراء ومن دونهم. كنتُ أعرف زميلاً قديماً من أيّام الكليّة ،قادَه حظّهُ العاثر أن يختاروه وكيلَ وزارة. قال في أحد الليالي تقرّر عقد اجتماع في سرداب الوزارة، طلباً للسلامة. وفي أوّل ساعة من ذلك الاجتماع انطلقت صفّارات الإنذار' فأصابنا الخوف جميعاً من سقوط قنبلة على مبنى الوزارة ونحن في السرداب. حاول أحد الكبار في الاجتماع أن يحوّل الانتباه عن الخوف من الموت تحت الأنقاض فسأل الوزير: بعد الغارة، هل نأخذ نساء العدو أسرى حرب أم سبايا؟ لم يجرؤ أحدٌ على الضحك من هذا السؤال الذكي، بل قال أحدهم: ننتظر ونشوف. فلما انتهت الغارة لم يَجدوا في مطبخ الوزارة سوى عجوز من أهل جنوب شرق آسيا، تغسل الصحون ، ولا عِلمَ لها بما حدث، لأنّها كانت صَمّاء لم تسمع صافرة الإنذار' و كَليلة البَصَر، لا تصلح للأسر ولا للسبي. إسترجع ذلك الفهيم صاحب السؤال الذكي عن الأسرى والسبايا شيئاً من اتّزانهِ وسأل مَن حوله: "ليش كنتم خايفين من القصف؟ الدنيا ليل والطيّار ما يضغب بالليل. إذا ما يشوف بعينو ما يضغب . شلون الطيّار يشوف بالليل؟" كلام منطقي يدلّ على ذكاء وزاري نادر! كنتُ بين الضحك والبكاء على ما سمعته من روائع الاستعداد الفكري والمِهَني عند جماعتنا. فأدركَ أبو غايب ما كنتُ أعانيه فقال لي فجأةً: إسمع، "المسعولين" عندنا يشبهون غيرهم في بلاد أخرى.
روى لي صديقٌ مصري كان يتكلّم بحسرة وأسى على ما حلّ بنا يوم 5 حزيران 1967 . قال هذا الصديق ، وهو صحافيٌّ كذلك ،حضَرنقاشاً بين الأومباشيّة والبكباشية: "دا احنا كنّا مستنّيهم مشَّرء أطا بيهم گونا ملغرب." لم أستطع السيطرة على ثورتي وصِرتُ أشتم وأصيح "يا أبا غايب، هذولا مادرسَوا تاريخ الحروب؟ ألَم يقرأوا عن هزيمة المسلمين في معركة أُحُد لأن خالد بن الوليد قائد أعداء الدين الجديد، من قبائل

قريش، استعمل الخدعة الحربية بعد هزيمة جيشه في أول مقابلة مع جيش المسلمين الأقل عدداً من رجال قريش، والتفّ برجاله حول جبل أُحُد وباغتَ المسلمين من جهةٍ لم يكونوا يتوقّعونها، وقد أمَرَهم الرسول (ص) بعدم النزول عن الجبل لجمع الغنائم والأسلاب، ولكنهم لم يحترموا الأمر فراح منهم كثيرون، ما تزال قبورُهم في جانبٍ من جَبَل أُحُد، الذي رأيتُهُ أيّام كنتُ في الحج قبل سنوات. وجَبَل أُحُد هذا ليس أكثر من تلٍّ صغير لكنّه كان كافياً لرمي السِّهام والنِّبال من موقعه الذي يعلو على الأرض المنبسطة تحته ، حيث هاجمت رجالُ قريش الذين "أطا بيهم گونا من ورا الگَبَل".

قلت يا أبو غايب، هذا مؤلم جداً. أنتَ صاحب خِبرَة طويلة و تعرّفتَ على كثير من الناس في مواقع شتّى بحُكم عملك الصحفي. هل لديك شيء عن عهود في بلادنا أكثر قرباً من هذه الأيام؟

تنهد أبو غايب وقال :عندي الكثير الكثير، ولكن أنا مثل أبناء جيلي نخاف من الحيطان التي لها آذان. ما يُدريك أن هناك من يتسمّع على حديثنا الآن ليركض ويُبلّغه إلى من يقدر على ايذائنا ؟ حدّثني زميلٌ قديم أصبح مدرِّساً في كليّتنا الآن، بعد حصوله على شهادة عليا، أن الجامعة طلبت من كليّتنا، ومن كليّات أخرى حتماً، بوجوب عقد اجتماع عام لأن الجامعة ستُرسل أحد المعاونين لشرح تعليمات تخصّ العُطل السنوية. ذهبنا جميعاً وكان الحديث تحذيرات وإنذارات حول الحضور والغياب، و أبرز ما قيل لنا إن العطلة الصيفية شهران هما تمّوز وآب ، أي 60 يوماً فقط ،والمخالفة تَستوجب عقوبة. و لما خرَجنا بعد انتهاء الاجتماع قال صاحبي لصديقه إن شهري تموز وآب31 يوماً لكلٍّ منهما،أي 62 يوما، فكيف غاب ذلك عن كبير الجامعة وحَسِبَها 60 يوما بدلاً من 62 يوماً ؟

قلتُ يا أبا غايب، هذه هفوة بسيطة ، فماذا استتبع ذلك من ضرر؟ قال أبو غايب: قد لا تصدِّق أن العميد جاء إلى صاحبي بنفسه، وهو رجلٌ طيِّب وصديقٌ عاقل ، فسأله وهو يضحك: كيف تقول إن الجامعة لا تفهم؟ هذا ما نقَلَه إليّ أحد زملائكَ ممن حضر الإجتماع. فشرح له صاحبي ما حدث، فقال: لا عَليك سأعرف كيف أعالج الموقف. قلتُ يا أبا غايب هذه كلها مسائلُ يُمكن نسيانُها بعد حين ،عندما تتحسن أوضاع البلد، ولا يبقى منها سوى ما يبعث على الضحك والسخرية، مثل سوالف صاحبك رئيس

محكمة الشعب .وقد ذكرتُ لك بعض ما لا تذكرُه الإذاعة والتلفزيون من "مَلخِيّات" ذلك العسكري المثقف الحريص على سمعة البلاد؟ قلتُ يا أبا غايب، هل هناك "أقمش" من حكاية شهادة معلِّمة الروضة؟ قال إسمع، سأعيد عليك هذه : ذكرت الصحف أن طه حسين نشر مقالاً أيّام الإعدامات في بداية أيام انقلاب تموز 1958 بعنوان "دار السلام ليس فيها سلام". لا أدري كيف استحضر المهداوي مناسبة المقال، ولكنه صرخ أثناء تدفّقات كلامه: طه حسين، يا أعمى العينين، كيف تقول دار السلام ليس فيها سلام؟ هل رأيت من خلف نظارتك السوداء؟ أحسَستُ وقتها أن نوعاً من الهدوء قد خيّم على السامعين، لأن ذاك الإنسان "طوّخها شوَيّة" وأشرطة المونتاج تكفّلت بحذف هذه المسخرة اللاإنسانية ممّا عُرضَ على التلفزيون والراديو. قلتُ يا أبا غايب، هذه كلّها مؤذية، ولو أنها صُوَرٌمن جهل وحماقة بعض "المسعولين". لكنها جميعا ليست مسائل قاتلة، على ما فيها من سوء. قال أبو غايب: ولكن إذا كان الجهل والحماقة من صفات "مسعول" أكبرمن المهداوي، عند ذلك تكون المصيبة أعظم. هل تذكر شيئاً عن العهد الذي أعقب أيّام المهداوي وطبقته المثقفة؟ أنا كنتُ اشتغل في الخليج، لكن القصص الطريفة كانت تَصِلنا. تسلّم الحكمَ في البلاد عسكري آخر لا يتفوّق على ثقافة المهداوي سوى بمَيلهِ لاصطناع النكات التي لا تُضحِك سوى مرافقيه "من نفس الطخم". مرّةً ذهب سيادة الرئيس في زيارة تفقّدية إلى مدينة الرمادي، ولا أذكرُ المناسبة. فاستقبَلهُ أهل المدينة بما يليق باستقبال رئيس دولة، فوقف فيهم خطيباَ قائلاً: يا أهل الرمادي، يا من قذَ فتُم الرّماد في وجوه الأعادي... فبدأ التصفيق من الحاشية وامتدّ إلى جمهور المستقبلين، مع ضحكات لا تُعرف طبيعتُها ،ولكن أحد الحاضرين أسَرّ إلى صديقي لاحقاً قولَه: هذا الرجل تكلّم كثيراً ولكنّه لم يَقل شيئاً...

واسمع هذه أيّها المصلاوي الذي يحبّ الطرائف :ذهب سيادتُه في مناسبة أخرى إلى البصرة، فبدأ خطابه التاريخي(وخطاب الرئيس دائماً تاريخي، ليس بين خُطَبِهِ أي خطاب جغرافي) أمام جمهور المستقبلين برائعة بلاغية من روائعه، مفتتحا خفّة دَمِه بقوله: يا أهل البصرة، متى تقدّمون لنا استكان نومي بصرة؟ وألحَقها بتَعرية أسنانه بما يُشبه الابتسام. وجاءت ردود الفعل بضحكات استحسان وتصفيق . ثانيه نقول يا أبا غايب: هذه

كلها تفاهات يُمكن نسيانُها بعد حين . انتفض أبو غايب لاستخفافي بما يذكر من مَثالب القائمين على حياة الناس ومستقبلهم، وقال بغضبة نادرة: يعني إلاّ تريد قصص من تصرّفات قاتلة؟ إسمع هذه عن حماقة قال عنها المتنبي: لكلّ داءٍ دواءٌ يُستَطَبُّ بهِ/ إلاّ الحماقةَ أعيَت من يُداويها .ذهب سيادة الرئيس لافتتاح مصنع للورق في العمارة بجنوب العراق، ولمّا أراد العودة إلى البصرة، التي لا تبعد أكثر من نصف ساعة بالطائرة الحوّامة، أصرّ على اصطحاب اثنين من الوزراء معه، من خيرة الشباب المتخصصين. كان الوزيران قد دخلا السيارة للعودة إلى البصرة لأن الجوّ كان عاصفاً بواحدةٍ من أيّام الغُبار الثقيل في تلك المناطق، حاسبين أن السيّد الرئيس قد يختار كذلك العودة بالسيارة لا بالطائرة الحوّامة في ذلك الجوّ المُغبرّ. لكن الوزيرين تفاجَآ بالسيد الرئيس قادماً إلى السيارة وانتهَرَهما بقوله: تعالوا معي في الطائرة، هل تخافون الموت؟ فأرغمَهما على ترك السيارة و دخول الطائرة معه. وبعد بضعة دقائق من الإقلاع سقطت الحوّامة بفعل العاصفة الرملية وفارق الحياة كلٌّ من فيها: سيادة الرئيس و الوزيران، وخسارَتُهما لاتُعوّض. أليسَت هذه حماقة قاتلة يا أبا غايب؟ إلتزَمَ صاحبي صمتاً قاتلاً هو الآخر، وأحسَبُ أنّه لم يَجد ما يُجيبُني به.

لم أستَطِع التخفيف من تدفّق غليان شعوري الغاضب على ما حلّ بالبلاد من جهل وحماقة وتخلّف الحاكمين، على مختَلف المستويات، فأغلبهم عسكريون غير مؤهّلين للعمل السياسي أو الإداري. فحاول أبو غايب أن يخفِّف من اندفاعي بإعطاء أمثلةٍ من بلادٍ أُخرى غير بلادنا ،لأرى أن المصيبة تشمل الكثير من بلاد الله. قال : يُروى أن أحد البلاد"الشقيقة والصديقة" قد ابتلاها الله برئيس دولة قروي كان منذ صباه يمارس هوايةً غريبة، وهي أنه كلّ صباح كان يدور بين بيوت قريته الطينية، ذات الحيطان الواطئة نسبيّاً، ويُطبق على الدجاج الواقف على الحيطان، ويقصم رقابها فتموت، ثم يلقي بها عبر الجدار إلى أصحابها. صار هذا الصيّاد اليدوي ، بقُدرة قادِر، رئيساً لبلاده، وصار يطبّق سياسة"خنق الدجاج"على كل من يَشُك في ولائه للنظام، أو يشك في طموحه ومنافسته في الحُكم.وكان على هذا الرئيس الصيّاد أن يختار مساعديه ممّن هم على شاكلته. فاختار مساعِداً أوّل كان "سوّاساً" في المدينة المجاورة، كلّ

مؤهّلاته حمل قِربَةٍ من "ماء عرق السوس" يدور بها ليَسقي الناس "الطاسة بفرَنك".ثم وجد ذلك السوّاس أن عمله لا يجلب له ما يكفي من "الفرنكات" فوجد له أحد فاعلي الخير وظيفة "فرّاش" في البنك. فلما اختاره سيادة الرئيس مساعِداً له، انفتحت أمامه مسالكُ لم تنفتِح لأصحاب الكفاءات العلمية والإدارية. وما لبثَ أن أصبَحَ "وزيراً للتجارة". قُلتُ: يا أبا غايب، هذه رواية أخرى من
مسرح اللامعقول. هل يُمكن أن يحدث هذا والناس نيام؟ قال :إسمع ما رواه لي أحد الموظفين من حملة الشهادات العليا من أميركا في تخصّص التجارة الدولية. قال جاء هذا الوزير في أول يوم وجمعنا ليُبيّن لنا سياسة الوزارة الجديدة. فبدأ بسلسلةٍ من التهديد والوعيد لكُلّ من يتهاون في عمله، أو يتقاعس في تطبيق توجيهاتِ السيّد الرئيس. واختتم بقوله: لو أمسَكتُ بأي مُخالِف فسَوف " أبنيه بالسَقف". وخرج الجميع من ذلك الإجتماع الأول بوجوهٍ كالحة، وألسنةٍ ملتصِقةٍ غير قادرةٍ على النُطق. ولكن تشَجّع أحدهم وسأل: ياتُرى ما معنى" أبنيه بالسَقف؟" فتشَجّع آخر وقال: في قرية ذلك الوزير الواقعة في أعالي نهر الفرات، عندهم عادة عند خِتان الأطفال أن يُغلِّفوا قُلفَةَ الجلد، المقطوعة عند الخِتان، بحفنةٍ من الطين اللزج ويقذفون بها إلى سقف الكوخ الطيني لتبقى شاهداً على ذلك اليوم السعيد!

في تلك الأيام كان من المألوف جدّاً رؤية الشخص غير المناسب يتربّع على مركز يمكنه منه أن يسيء التصرف إرضاءً لنزواته الخاصة، وأبرزها الكسب غير المشروع، واستغلال المنصب دون خوفٍ من عِقاب، لأنّه مدعومٌ من أحد الكبار في الحُكم . من هؤلاء شخصٌ كلُّ مؤهلاته شهادة التعليم الابتدائي، لكنّه كان قريباً من الأخ الأكبر، فاتخذ لنفسه إسم "خال السَّبع" فصار الناس يخشونَه. تعيّن هذا المتنفِّذ مديراً لمؤسسة كبرى في البلاد، في منطقة من المدينة قريبةٍ من المحاكم، وحولها عددٌ من كتّاب العرائض، يقصدهم الناس المساكين ممّن لا يُحسن القراءة والكتابة لغرض كتابة عريضة لتقديمها لذلك المتنفِّذ، طلباً لحلّ مشكلةٍ تجارية أو إدارية أو ما يتعلق بالإيجار أو البناء. كان ذلك المتنفِّذ قد وزّع على كُتّاب العرائض نُسَخ كتيّبات لا تزيد عن ستة صفحات من

تأليفه، هي حِكَم ونصائح مجموعة من كتاب القراءة الخلدونية التي لا يعرف غيرها، مع بعض الأدعية والصلوات. وأمَرَ ذلك المتنفِّذ السعيد أن يكون كلّ طلب يكتبونه مشفوعاً بنسختين من ذلك الكتيّب يشتريها صاحب الطلب ويوقّع كاتب العرائض على العريضة أن صاحبها قد اشترى نسختين من ذلك الكتيّب. فيذهبُ صاحب الطلب إلى المتنفِّذ السعيد ليحصلَ على توقيعه بالموافقة على الطلب، ليجد لوحةً على الجدار فوق رأس ذلك المتنفِّذ تقول: "إدفع بالتي هي أحسن" وتحتها لوحةٌ بخطٍّ أصغر تقول: "بالعملة الصعبة". وإذا خرج المسكين حاملاً عريضَته وعليها توقيع السيِّد المتنفّذ يقابله موظفٌ آخر جالساً على مكتبٍ صغير عند الباب لكي يفحص العريضة ويتسلّم المقرّر بالعملة الصعبة، ويذهبَ مَلوماً مَدحورا. هكذا كانت تسير الأمور يا أبا غايب، فلماذا العجب أننا نسير نحو الهاوية، والقليلُ من يُدرك ذلك!

حاولتُ إزالة الغمامة التي غَطّت وجهَ صاحبي فقلت له: ألا تذكُر حكاياتٍ عن حماقاتٍ غير قاتلة، لكنها تُثير الحسرة على وجودها عند أناس متسلطين؟ قال أبوغايب :بلى قد تُعجبكَ هذه: في أوائل أيام انقلاب تموز 1958 طلبَ منّي رئيس تحرير الجريدة التي أعمل فيها مساءً أن أذهب إلى وزارة الدفاع في باب المُعَظم لحضور اجتماع الزعيم الأوحد مع مجلس وزرائه. رحّبتُ بالطلب ، فهذه فرصة قد لا تتاحُ لغيري. بدأ ذلك الاجتماع عند منتصف الليل، وكان معي خارج قاعة الاجتماع عدد من مراسلي الصحف الأجنبية، بينهم واحدٌ من چيكوسلوڤاكيا بدأيسألني أسئلةً توحي بأسلوب تجسّسي ، وكان يَحمل علبةً قال إنها كؤوس كريستال تُشتَهَرُ بها بلادُه ، حملها هديةً للزعيم الأوحد. فقلتُ له باستِنكار إن الزعيم سيرفض هذه الهدية لأنه عَفيف النفس. وفي آخر الاجتماع خرج الزعيم فسلّمه ذلك المراسل الهديّة الكريستال وقَبِلها الزعيم شاكراً، ولم أستطع تجنّب النظرة الشامتة من ذلك المراسل، وعاد الزعيم إلى الاجتماع وسمِعنا تَصايحاً وجدلاً ونحن خارج قاعة الاجتماع، وقد أتعَبنا السهَر والساعة قد بلغت الثالثة صباحا. وإذا بالباب ينفتح ويخرج منه و من الاجتماع غاضباً ابن بَلَدِكم الدكتور عبد الجبار الجومرد وبيده سِدارَتُهُ وكان قد تسلّم وزارة الخارجية، وهو حامل الدكتوراه في القانون من

السوربون ودكتوراه أخرى في الآداب. يا ويلي على وزراء هذه الأيام! خرَج الزعيم خلفَ الجومرد يرجوه أن يعود إلى الاجتماع، وانحَنى وقَبّلَ رأس الوزير الغاضب. وكانت هذه أوّل مرّة أرى فيها قُبلةً على الرأس، فسّروها لي بعدها أنّها تعبيرٌ شديدٌ عن طلب الصَّفح والاسترضاء .هل هذه معروفة عندكم في الموصل؟ قلتُ يا أبا غايب، هذه أوّل مرّة أسمع بها، ولكن هل بين "المسعولين" هذه الأيام من يتصرّف بمثل هذه الأخلاق الكريمة؟ ليتني أعرف ما الذي أثار زعل الجومرد ، الذي سجّل أوّل اعتراض على رئيس عسكري مثل الزعيم الأوحد في تلك الايام! وثمّة حكايةٌ مشابهةٌ من احتجاج المثقف الكبير مثل الجومرد على تصرفات الحاكم ولو كان عسكرياً يخشاه الناس. يُروى أنه في عهد لاحِق جاء الرئيس يرجو الجومرد نفسَه أن يقبل مجدّداً بتسلّم وزارة الخارجية التي كان يشغلها ضابط كبير، لا ندري مدى خِبرته بالسياسة. لكن الجومرد قال للرئيس العسكري الجديد: موافق على شرط أن تضع تحت إمرَتي دبّابة بباب الوزارة. سأل الرئيس الجديد بكل "براءة": ولكن ما حاجتك إلى الدبّابة؟ قال: ما حاجة هذا الوزير العسكري الحالي بهذه الدبابة الراقده أمام بناية الوزارة في باب المعَظّم؟

قال أبو غايب: من صفات الإنسان الطيّب أن يَذكرَ مَحاسن السابقين في الحُكم ،حتى ولو لم يكونوا على هواه في المذهب السياسي أوالديني. مثلاً أذكرُ أنّي قرأتُ في إحدى المجلات مقالاً عن نوري السعيد الذي صار رئيساً للوزارة ثلاثَ عشرةَ مرّةً في تاريخ العراق الحديث. لم يَكن المقال ما دحاً ولا قادحاً في وقتٍ كان الشعور العام ضد حُكم نوري السعيد، الذي كان يوصف بأشنع الأوصاف. ذكرَ المقال أن نوري السعيد كان يحمل العلاّكة بيده في سوق الأمانة بشارع الرشيد، و يختار الخضار والفواكه بنفسه وسطَ ترحيب الباعة ومُجاملاتهم البغدادية المألوفة. وذكرَ المقال أن الرّجُل لم يكن يملك سوى راتبه وأنّه مرّةً كان بحاجةٍ لإجراء بعض التصليحات أو التوسيعات في داره، فاتّصل بمدير البنك العربي الذي افتتح ببغداد مؤخّراً طالباً مقابلة المدير، ويُقال إنّه كان فلسطينياَ، فبادره المدير قائلاً: "وَلَو! أنا آجي لعندك يا باشا. خيراً؟ قال نوري السعيد: أريد قرضاً بالفي دينار لإجراء بعض التصليحات في داري. أجابه مدير البنك: فوراً و بلا ضمانات.

أسألك أيّها الفتى المصلاوي هل يحدث مثل هذا في هذه الأيام من جانب أصغر "المسعولين" في حكومات آخر زمان؟ وثمّة حكايات الزعيم الأوحد واختلاطه بالشعب من أمثال أبو الخس، في شارع أبو نواس، والزعيم الأوحد لم يملك داراً لسكنه بل كان يستأجر مشتملاً صغيراً في آخر الكرّادة ودَخلُهُ الوحيد راتبهُ الذي يقسِّم منه على المُعوَزين كل شهر. وثمة حكايةٌ "أقمَش" عن آخر ديكتاتور عَرَفَتهُ البلاد، الذي كان ضد الملكية بشكل صارم. يُحكى أنّه كان يأتي ليلاً إلى المقبرة الملكية في الأعظمية مع اثنين أو ثلاثة من الحماية ويأمر حارس الضريح أن يفتحَهُ ويجلس يتأمّل في جثمان الملك الشاب الملفوف في الكفن، ويبقى صامتاً يتأمّل لحوالي نصف ساعة ثم يُغادر المكان. ماذا تفهم من هذا، إن صَحّت الرواية؟ هل كان ذلك الطاغية يتخيّل نهايته هو لأن الموت نهاية كل بَشر، والفرق أن بعضهم يموت أو يُقتل مأسوفاً عليه، وبعضهم لا يدري كيف سيكون موتهُ أو كيف سيذكُرُه الناسُ من بَعدِه؟

أحسب أنّي غِبتُ عن الوَعي قليلا ، أوربّما أصابني ما يُشبِه النُّعاس من أحاديث هذا الأبو غايب التي لا يمكن الفكاك منها. فهي أحاديث من جرَّب الحياة وعرَف الناس في مختلف أطوارهم، فلا تستطيع معاكسَته في ما يراه ويقول، وهو الخبير، ولا يُنبئكَ مثلُ خبير. وأنتَ تُريد مَزيداً من الحكايات عن أيام زمان ضاع ولم يبقَ منه ذِكرٌ سوى في ذاكرة من عاش في تلك الأيام و يمتلك القدرة والجُرأة علي روايتها، لتبقى مرجعاً وهِدايةً لأمثالي من اللاحقين الذين قد لا تكون لديهم حافظةٌ قويّةٌ كالتي عند أبو غايب، ولو أن أكثرأحاديثه تَبعث على التأسّي على زمان مضى وقد لا يعود.

أفاقتني من شِبه غفوتي ضحكةٌ أو شهقةٌ من جليسي الطيّب أبو غايب. فقلتُ له بلهجةٍ مُتعَثرةٍ :أبا غايب، هذه حكاياتٌ فيها مرارةٌ قَدرَ ما فيها من حلاوة. الا تُحدّثنا عن أيّامك في الخليج، لعل فيها طرافةً وذِكرى عن أيّام لا تبعث على الاكتئاب، بل فيها ذكرياتٌ عن أيّام قد يَرغبُ بعضُ أبناء جيلي بالإحاطة بها، لعلّ فيها من الدروس والعِبَر بعض ما يفيد.

-2-

إعتدل أبو غايب في جلسته كمَن يتأهّب لحديث طويل ممتع. قال: في شبابي حَصلتُ على وظيفة في مديرية الميناء في البصرة. ونسّبوني إلى قسم الترجمة بصفة مُدقق لُغوي لأنّ تلك المديرية كانت عراقية بالاسم، لكن جميع موظفيها كانوا من الانگليز أو الهنود، لذا كانت الصحف تكثر من التعليقات على ضعف لغة البيانات والإعلانات الصادرة عن مديرية الميناء. فكان تخصّصي باللغة العربية هو السند الوحيد للتعيين، ولو أنّ مدير شؤون الموظفين الأسكتلندي كتب بالخط الأحمر على طلبي الحرفين.N.V أي لا شاغر أولا يوجد حاجة! لكنّ مدير قسم الترجمة توسّط لدى من هو أعلى من ذلك الأسكتلندي، وحجّته أن المدقّق اللغوي سَيرُدّ على أقوال الصحف حول المستوى اللغوي الضعيف لمنشورات الميناء وإعلاناتها فنجح تعييني. وفي أول يوم من دوامي علمتُ أن من سبقني في هذا المكان هو الشاعر العراقي المشهور بدر شاكر السياب، الذي سرعان ما غادر وأحسَبُ أنه لم يتحمّل ذلك المحيط الأجنبي في بلاده، وهو البصراوي العريق مثلي... أي نعم! كان في مديرية الميناء قسم شؤون الموظفين، يراجع السجلات والأسماء وتواريخ الإلتحاق والإنفكاك من الوظيفة، وهي أمور دون مستوى الموظفين الإنكَليز وأغلبهم من مُسَرّحي الجيش البريطاني، ويتصرّفون كأنهم ما يزالون في الجيش. كان أحدهم يرتدي السروال الكاكي الذي يرتفع عن الرُّكبة لكي يبقى تِذكاراً لصِفته العسكرية. وكان رئيس الكتبَة قروي من شمال العراق، إسمه جرجيس، لكنه صار مستر جورج. كان مثالاً للخنوع أمام رؤسائه الانگليز. فإذا سُئِل لماذا هذه المبالغة في احترام الرؤساء الانگليز في حالات و مواقع لا تتطلب أكثر من التصرّف المحتشم الطبيعي، كان جوابُه المتكرّر: الله من فوق و الانگليز من جَوَّه، أي أن رزقَه على الله في عليائه، و على الانگليز على الأرض التي أنعموا فيها عليه بالوظيفة. كانت بعض التقارير الصادرة عن مديرية الميناء تتعلق بشؤون تصدير النفط وأخبار البواخر وحمولاتها من النفط أو البضائع المستوردة، وأغلب تلك البضائع مستوردة من بريطانيا أو من الهند، من شركات بريطانية تشتغل في الهند. في ذلك المحيط نشأت مشاعر الاحترام، التي تقارب التقديس، لكل ما هو مصنوع في انگلترا، وفي الوقت نفسه كانت أسواق البصرة والعشّار تعرض بضاعة مصنوعة في

اليابان بأسعار أرخص من البضائع الانكليزية ، مما أثار حَنَق السلطات البريطانية المسيطرة على مفاصل الدولة، منذ أيام الحرب العالمية الثانية وما تبعها، لعقدين أو ثلاثة من الزمان. وقد تسرّب إلى الناس العاديين تعبيرٌ عن نوع من الاستصغار لكل ما هو مصنوع في اليابان، في وضعه قبالة الصناعة الانكليزية.

وبعد أيام من عملي في الميناء، سمعتُ عن مبادرات للتعاون بين مديرية الميناء وشركة النفط في مجال الإعلام. و علمتُ أن بعض موظفي شركة النفط الانكليزيتصرّفون بشكل مُريب، خارج حدود وظائفهم. فنصَحني بعض العارفين من أهل البلد أن أكون حَذِراً في التعامل مع الموظفين الانكليز في الميناء أو الشركة. وما كانت بي حاجةٌ لذلك التحذير لأني كنتُ مُطّلعاً على جميع المراسلات الرسمية بحكم عملي في تدقيق لغة تلك الوثائق والمراسلات، التي كانت تثيرُ فيّ نوعاً من الغضب على بعض ما يجري من اتصالات بين الميناء أو الشركة مع بعض الجهات والشخصيات الحكومية أو الأجنبية. تقرّر إصدار مجلة شهرية بالعربية و الانكليزية بعنوان "أهل النفط " وطُلبَ منّي أن أمثّل مديرية الميناء للقيام بالتحرير والتدقيق اللغوي وترجمة بعض المقالات أو التعليقات التي تصدر بالانكليزية للنشر في المجلة. كان عنوان المجلة نفسه يُثير فيّ الغيظ على من اخترع ذلك العنوان: أهل النفط ! أهو نفطُهم أم نفطُنا؟

وبعد مدّة انتهى عمل أحد الانكليز في شركة النفط وأقاموا له حفلة توديع في الشركة وطلبوا منّي تغطية تلك المناسبة في مقال في المجلة وكلّفوني بصياغة الخَبر والمقال بالعربية. وقد زاد من حَنَقي أن السيد المسافر قد أرسل برقيةً إلى الشركة حالَ صعودِه إلى الباخرة الراسية في شط العرب يقول فيها إنه يأتمِنُ جميع العاملين في الشركة على نفطنا الذي سيعود بعض رَيعِه على مشاريع إعمار في البلد! ولم تكن العبارة واضحةً في الإشارة إلى أيِّ بلدٍ يقصُد: هل يقصُد بلدَنا أو بلدَه لأنه يتحدث عن "نفطنا"؟

لكن هذه العَنعَنات كانت غائبةً عن اجتماعاتنا نحن العراقيين القلائل في مديرية الميناء أو الشركة. كنّا في العصاري أو الأماسي قليلة الحرارة أو الرطوبة، ولا أقول الباردة، نتجمّع للتمشّي في سوگ الهنود أو سوگ المغايز، ثم نسير نحو "ساعة سورين" وأحاديثنا عن الشركة و موظفيها

دائماً. كان بيننا ميخائيل من جماعة مستر جورج، الذي صار اسمه مستر مايكل. لكنّنا كنّا نناديه ميخا، كما كانوا ينادونه في قريته في شمال الموصل. كان هذا المستر مدير الحسابات في الشركة، وكان يتفاخر أنه قبل تقديم حساب أي مناقصة واجبة الدفع لمقاول محلّي يقوم بإضافة صفر على يمين المجموع ويوافق مستر جورج .وعند الدفع يقوم جرجيس وميخا باقتسام المبلغ الزائد، و يقول صاحبنا المحاسب المؤتمن أن ذلك نوعاً من النضال ضد المستعمر، لذا فهو حلال لأنّه غنيمة!
وممّا كان يثير حنَقَنا نحن العراقيين القلائل في مديرية الميناء أن مدخل البناية بَهوٌ أنيق بمَرمَر باذخ، هو النقيض من دور المواطنين في البصرة والعشّار وأغلبُها من الطابوق الكالح أو المغطى بطلاءٍ من الجصّ لا تدوم ألوانُه أمام العواصف الرملية الموسميّة أو الرطوبة الدائمة على امتداد السنة. وكنّا نسمع أنّ بعضَ أهل الخليج كانوا يأتون إلى البصرة للاصطياف! يا تُرى كيف كانت أوضاع الرطوبة والحرارة في بلادهم... جنوب البصرة، حتى صاروا يحسَبون البصرة بلدَ الاصطياف؟ كان هذا طبعاً قبل هجوم الأموال والغنى عليهم، بقُدرةٍ قادِر، فصاروا يُفرِطون في استعمال المُكيِّفات والمُبَرِّدات انتقاماً من الطقس في بلادهم، و هو فصول صيف تعقُبها فصولُ صيفٍ ثانية!
إزاء أجواء الطقس في البصرة والعشّار كان الدخول إلى بَهو الميناء أشبَه بالدخول إلى عالم آخر، كُلّهُ بَردٌ وسلام. البَردُ من التكييف غير مسموع المكائن، والسلام من منظر الأرضيات الرُّخاميَّة والمَرمَريّة، وخاصةً في الدرجات التي تدورُ بكَ للصعود إلى المكاتب، ومنها مكتب الترجمة الذي كنت أعمل فيه. لكن الصعود إلى الطابق الأعلى كان لابد أن يُثير فيك شيئاً من الغضب، لأن في صدر الدَرَجات عند انقسامها يميناً وشمالاً ثمّة بابٌ كبيرٌ من الخشب اللامع يُؤدي إلى دورةِ المياه والمغاسل، لا يدخُلُها إلاّمن بحوزته مفتاح ، وهو لصفوةٍ من الموظفين الأجانب، أي الإنكَليز. هذا ما قيلَ لنا ،ولكن أحداً منّا لم يدخل تلك المنطقة المُحَرّمة على غير الأجانب.

ولكن ما الذي يثير الغضب هنا ؟ سألتُ صاحبي أبا غايب. قال: قد لا تصَدِّق أنهم وضعوا تمثالاً نِصفياً للملك أمام ذلك الباب المحترم! هل في

ذلك أيّ احترام لمشاعر أهل البلد، أم أن "الصاحب" يريد ذلك؟ وكلمة صاحب هذه هي طريقة الهنود في مخاطبة الانكليزي الذي استعمر بلادهم لعقودٍ طويلةٍ ودرَج استعمالها عند العرب من حولنا من أهل البصرة والعشّار، وأحسَبُ أنّها في طريقها إلى الزوال.
وعلى ذكر الهنود ، قال صاحبي أبو غايب :كان أحد زُملائنا من العاملين في شركة النفط يتحدث عن هندي مسلم إسمه إبراهيم، رجلٌ كهلٌ يَنطق بحكمةِ الهنود و يهدّىء من غضب الشباب عندما ينزعجون من تصرفات مستر جورج ومبالغاته في التذَلل أمام المدير الأسكتلندي .كان هذا الإبراهيم يتميّز بحُسن الخط فيوَفّر على كاتب الطابعة كثيراً من الوقت والجهد .وكان صاحب نكتةٍ وطرائف موَجّهَةً على نفسه لا على الآخرين.
كما كان لا يأكل إلاّ القليل بالنسبة للموظفين الآخرين الذين يُخرج الواحد منهم لفّة كباب أو أبيض وبيض من كيسٍ يحمِلهُ إلى المكتب، تفوح منه روائح العَمبَه الهندية، و يجتمعون في زاوية المكتب ويبدأون حفلة الغداء التي لا يُشاركهم فيها إبراهيم الهندي، لأنّه لا يأكل إلاّ "تمر هندي وخبوز"، حفاظاً على الصحة. ينقع التمرهندي بكأس ماء ويغمس به "الخبوز". وكانت نكات الهندي مقدّمة
للحديث عن نكات أخرى لكنّها، على الرغم من طرافتها، فيها شيءمن برودة النكتة الإنكليزية،إذا أمكن القول إن عند الإنكليز نكات على الإطلاق.
من هذه النكات الأنكلو- هندية يروي إبراهيم أن هندياً بعمامةٍ كبيرةٍ ملوّنة سافر إلى بريطانيا مرّةً ، فسأله موظف الجوازات في مطار لندن: كم تريد أن تبقي في بريطانيا؟ فانفَجرَ الهندي بالضحك. فسأله ضابط الجوازات باستغراب :ما الذي يضحكك ؟ فأجاب الهندي بلغةٍ مُشَذّبة: سيدي عندما جئتم إلى الهند لم نسألكم كم تريدون البقاء في بلادنا؟ فتخلّص موظف الجوازات من الإحراج بأن ختم جواز الهندي وسلّمه إليه بغمغمةٍ غير مفهومة، وانصرف الهندي مستمرّاً بالضحك!
قلت يا أبا غايب إسمع هذه النكته الإنكليزيه الأبرد : مرّةً كنّا في جلسة أصحاب بينهم بعض الإنكليز، لذا كانت الأحاديث خليطاً بين الإنكليزية والعربية. فلمّا دارت صحون المثلّجات، أي الدوندرمه بالعامّية التركية الدخيلة، أو الآيسكريم بلغة المتمدّنين، تشعّب الحديث إلى أنواع تلك

المثلجات في عدد من البلاد التي زارها بعض الحاضرين . وكان الإجماع على أن "بوظة" سوق الحميدية في الشام لا يُعلى عليها. تورّط أحد الحاضرين بالقول: لكن ليس في الدنيا أسوأ من الآيسكريم الإنكليزي، فهو أشبه بالصابون شكلاً و رائحةً. فغَمغَم الإنكليزي بعبارةٍ سمِعَها الجميع: لكن هذا يتطلّب تنمية ذوق! ورحنا نتساءل :هل يقصد هذا الإنكليزي أهانة من ذَمّ الآيسكريم الإنكليزي أم يقصد أن جميع من لا يَستطيب ذ لك الذي "صُنِعَ في إنكلترا" يعوزهم الذوق ؟

قلت يا أبا غايب، هذه جميعها أحاديث طريفة قد يَستَطيبها أبناء جيلي، ولكن أبناء الأجيال القادمة سوف يَستَطيبونها أكثر لأنها ذاكرة التاريخ الحي، يرويها أناسٌ عايشوا الأحداث والوقائع في حينها، فإن لم تُسجَّل لهم في أحاديثنا فإن ذلك التاريخ سيغيب في مطاوي النسيان؛ ومن لا تاريخ له لا مستقبلَ له !

تبسّم أبو غايب من هذا الكلام من الفتى الحكيم، لكنه لم يشأ أن "يكسر خاطر" فتى يسأل أسئلةً مُحرِجةً أحياناً عن بعض "المَسعولين" والأحداث الكبرى التي مرّت بالبلاد، وهو يختلف عن الكثيرممّن حوله من الشباب الذين لا يعنيهم سوى لعب الآزنيف والطاولة زَهر، وتناسى ما يدور في البلد وفي المجتمع من حوله ، و لو أنه يعرف أن قدراته على تعديل الأعوج في الحياة والناس هي بعيدة المنال.

حاولتُ تغيير مسار الحديث قليلاً لأني شعرتُ بتضايق مُجالسي من كثرة الحديث عن أبناء بلدنا في بلادنا. قلتُ يا أبا غايب، أنا واثق أن لديك حكاياتٍ كثيرةً عن بعض أبناء بلدنا ممّن سافر خارج البلاد للعمل أو الدراسة أو الاستقرار في بلاد الغُربة. ربما نجد في أحاديث هؤلاء نوعاً من الطرافة يختلف عمّا كنّا نتحدّث به دوماً عمّن نعرف من أبناء بلدنا في الداخل. يا تُرى هل في الخارج مسائل تفتح العيون عمّا يريد أبناءجيلي معرفته علاوةً على أبناء الأجيال القادمة؟ قال أبو غايب: عندي الكثير من هذا لأن عدداً من زملائي في الكليّة قد حصلوا على بعثات حكومية إلى بريطانيا وأمريكا. بعضُهم بقى في البلاد الأجنبية وحصَل على عمل خشي ألاّ يحصل على مثله لو عاد إلى الوطن ؛ أو أن بعضهم تزوّج أجنبيةً وفضّل البقاء في بلدها طوعاً أو كرهاً.

هاتِ ما عندك يا أبا غايب، فقد زاد اشتياقي لسماع أخبار المُتأمرِكين والمتفرنجين من رَبعنا. قال أبو غايب حصل بعض زملائي في الكليّة على بعثات حكوميه إلى بريطانيا وفرنسا وأمريكا وصار بعضُهم يُراسلني وأنا في العراق أو في الخليج ،لأنّ الزَمالة في تلك الأيام كانت متينة العُرى، لا تُضعفها الأيام و لا يُفسد الودّ فيها اختلاف الرأي في السياسة أو حتى في الدين. ذهب أحدهم الى فرنسا، وسُرعان ما تعلّم اللغة الفرنسية في معاهد أنشأها الفرنسيون وتخصّصت في تعليم اللغة للوافدين من شباب البلاد الأخرى للدراسة. دَرَس هذا الزميل القانون الدولي في السوربون، وسُرعان ما تعلّق بغادةٍ پولندية عادَ بها إلى العراق زوجةً بعد تخرّجهما بالشهادة العليا. إعتنقت تلك البولندية الكاثوليك الإسلام وصارت تتكلّم العربية بلكنةٍ عذبةٍ أكسَبَتها العديد من الأصدقاء في بلادنا. بينما ذهب آخر إلى پاريس كذلك ولكنه لم يستطع تعلّم اللغة ليدرس الدبلوماسية فعاد إلى وظيفته السابقة في الخارجية العراقية وصار كثير الانتقاد للجامعة الفرنسية لأن تعليم اللغة في المعاهد هناك كان يبدأ بتركيب الجُمل البسيطة مثل: العصفور فوق الشجرة، البحر واسعٌ، قرأتُ اليومَ كتابين... هذه سخافة، أريد أن أبدأ بعبارة: قدّم السفير أوراق اعتماده، قام رئيس الجمهورية بافتتاح قنصلية جديدة للفاتيكان، وأمثال ذلك مما يمهّد لدراسة الدبلوماسية. هكذا كان هذا الفهلوي يريد أن يقفز إلى السطح العالي بخطوتين، فعاد إدراجَهُ كاتب الصادرة والواردة في مكتب شؤون الموظفين.

وربما تذكر يا أبا غايب حديثي عن ذلك الزوج بالإيجار لخمسٍ وعشرين سنةٍ تنتهي بالتقاعد من الوظيفة والزواج معاً. وتذكر ذلك الخريج بالدكتوراه من أمريكا بجهود من تزوّجها ثم طلّقها ليكسب وظيفةً دبلوماسية وأمثال ذلك غير قليل.

تذكّرتُ الآن زميلي في الكليّة سالم الذي كان بارعاً في العلوم والرياضيّات فأرسل ببعثة لدراسة الهندسة في جامعة كبرى في بوستن وكانت المدينة تضم الكثير من العرب من أصول سورية ولبنانية كان سالم يرتاح لصُحبتهم ومنهم من يملك مطعماً يقدّم الوجبات الشاميّة بالدرجة الأولى، وهو ما يستهوي سالم كثيراً. عندما عاد سالم بعد

حصوله على الشهاده العليا حدّثني أحاديث كثيرةً عن مشاهدات غريبة في طرافتها. كان ذلك في أوائل الخمسينات من القرن الماضي، وكان لدى بعض الأمريكيين عادةٌ لطيفةٌ جدّاً، وهي أن بعض العوائل الموسرة المنفتحة على العالم الخارجي كانت تتبنّى بعض الطلبة الأجانب ويسمّونهم الطلبَة الدوليين، فيدعونهم في المناسبات والأعياد إلى بيوتهم ويرحّبون بهم ويتحّدثون معهم عن بلادهم وعن انطباعاتهم عن المعيشة والدراسة في أمريكا. وفي أول سنةٍ لصاحبي سالم كانت الأيام تقترب من عيد الميلاد، الذي يحتفل به الأمريكان كثيرا. سألت السيدة المضيفة صاحبي سالم إن كان قد رأى عالمَ الاحتفالات بعيد الميلاد في أنحاء المدينة، وبخاصة الحديقة الكبرى في مدينه بوستن، حيث يُقام تشكيلٌ يُمثل ميلاد السيد المسيح في حُضن أمّه السيّدة مريم العذراء، وحولهم مشاهد المِذوَد حيث وُلِدَ الطفل، مع عدد من التماثيل تصوِّر رحلة المجوس مقتدين بالنجمة ، وفي مشهد الميلاد عددٌ من الخِراف الصغيرة و الحِملان، إشارة إلى قول السيّد المسيح أنا حَمَل الإله، كنايةً عن تمثيل البراءة والسلام. ذهب صاحبي سالم إلى ذلك المشهد الجميل وعاد يقول لمُضيفته إنه استغرب منظر الحِملان التي لها أذناب ورؤوسها طويلةٌ مُدَبّبة، مما يَجعلها أشبه بالذئاب منها بالحِملان، ممّا يَقلب الرمز ويُسيء إلى المعنى أكبر إساءة. ولاحظ سالم أيضا أن السيِّده مريم العذراء عيناها زرقاوان وشعرها أشقر ذهبي، مُنسَدلٌ على كتفَيها. وقال سالم إن السيِّدة مريم العذراء في هذا المشهد لا تشبه السيدة الفلسطينية التي كانت. فكيف انقلبت تلك الصورة الرمزية عن الصورة الأصلية؟ قالت السيّدة المُضيفة: هكذا فهمنا المسيحية. فسارع سالم بسؤال باغت مُضيفَتَه كثيراً. قال لها: هل إن مسيحَ الغرب غيرُ مسيح الشرق؟

وعلى مستوى آخر من العلاقات الإجتماعية، كانت الجامعة تحافظ على تراث بريطاني قديم وهو تناول الشاي في الرابعة عصر كل يوم في قاعة أنيقه الأثاث في الجامعة، وهذه مناسبة لاجتماع الطلبة والتعرّف على بعضهم أكثر. كانت الأحاديث تبتعد عن الدراسة والعلوم، وتؤكد

على العلاقات الاجتماعية و التعرّف على ما لدى الطلبة الدوليين من عادات وأعراف تستهوي الطلبةَ القادمين من بلاد أُخرى، وأغلبهم من الطلبة الأمريكان. حدّثني سالم أنه استمع مرّةً إلى حديثٍ بين اثنين من الشباب الأمريكان من زملائهِ في الجامعة. قال أوّلهم: أمسِ رأيتُ الحسناء جانيت خارجةً من البنك. سأل الآخر: ومن هي جانيت هذه؟ كان الجواب: جانيت الحلوة التي أُعلِنت خطوبتها في الأسبوع الماضي على طالب إنكليزي. سأل الأول: وما هي صفات الجمال في جانيت هذه التي تستهوي الشاب الانكليزي ؟ كان الجواب إن عينيها خضراوان، مثل خضرة الدولار، والشاب البريطاني أبوه يحمل لقب "كونت". كان السؤال اللاحق: وكم دخل هذا الكونت السنوي؟ قلتُ يا أبا غايب، ما رأيك في عينين خضراوين بخضره الدولار، وطالب انكليزي أبوه يحمل لقب كونت، ولكن لا يُعرَف مقدار دخلهِ السَنَوي؟ هل أصبح الجمالُ والحَسَب والنَسَب على هذا المستوى في أمريكا؟ قال أبو غايب: هذا عالم غير عالمنا، ممّا يُذكّرني بقول رَديارد كبلِنك شاعرالإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر:

الشرقُ شرقٌ والغربُ غربٌ / وأبداً لن يلتقي الاثنان.

في خمسينات القرن الماضي كان متوسط الفرد الأمريكي ما يزال بعيداً عن التعصّب ضدّ غير الأمريكان، وكانوا لا يثقون كثيرا بما يقرأون ويسمعون في وسائل الإعلام بل يريدون الاستماع إلى الرأي الآخر، أو في الأقل هذا ما وجَدتُه في المجتمع الذي كنتُ أدور فيه، وهو مجتمع طلبة الجامعة والأُسر الأمريكية المُنفتِحة على العالم الخارجي، وتريد الاطّلاع على ما لدى الآخرين من الاستماع إلى هؤلاء الطلبة الدوليين. قال أبو غايب: ذكَرَ لي سالم بعد عودته إلى العراق وبداية عمله في مؤسّسة حكومية كبرى في مجال تخصّصه أنه طُلِب إليه مرّةً الاشتراك مع أستاذ أمريكي من جامعته نفسها التحدّث عن مشكلات الشرق الأوسط و البلاد العربية بشكل خاص. قال سالم: كنتُ مُتَردِّدا في قبول هذا الطلب لأن الوقت كان بعد حرب 1956 وازدياد الدعاوة الصهيونية في أمريكا.

كان ذلك ممّا أقلق كثيراً من أصحاب العقول المتفتّحة من الأمريكان الذين كانوا يريدون سماع صوت الآخر. وجدتُ نفسي مُضطرّاً لقبول التحدّي، ولوأن ذلك الأستاذ كان متخصّصا بالرياضيات، وأحسَستُ بأنه من "أبناء عمومتنا" وأنا ما زلتُ طالباً لم أتخرّج بَعد. بدأ النقاش أمام جمهور كبير في إحدى قاعات الجامعة. ولكنني جئتُ إلى المناقشة بعد أن جَلستُ إلى ثلاثةٍ من الطلبة العرب المتخصّصين في القانون والعلوم السياسية، أعطوني عدداً من النقاط وعدداً من التصريحات لسياسيّين أمريكان وصهاينة، وكيفية التصدّي لها بالمنطق و سرد الحقائق، التي تناقض ما ينادي به الأعداء. بدأ النقاش بتقديم الأستاذ ليتحدّث قبل أن أتحدّث أنا. فبدأ بحماسة وبكثيرٍ من الكلمات العاطفية التي تغذّي مشاعر الحاضرين. كنتُ أناهادئاً جدّاً بانتظار أن ينتهي ذلك الأستاذ. فلمّا قُمتُ للحديث بدأتُ بهدوءٍ لم أكُن أعهَدهُ في نفسي. وبدأتُ بسَردِ مُسَلسَلٍ من التصريحات السابقة للعدوّ ممّا يناقض تماماً ما قدّم الأستاذ قبلي. ومع استمرار تقديم تلك التصريحات، مُوَثقةً بالتواريخ والأسماء، بدأ الجمهور يميل نحوي، ويطلبُ منّي المزيد من هذه المعلومات، التي لا يمكنُهم مُناقشتَها، لأنها تخلو من اللغة العاطفية والحماسة الكاشفة لضآلة حُجّة الخَصم. وانتهت المناقشة بتصفيق طويل لما قدّمتُه بالمنطق والكلام الرسمي الموثّق. وسارع الأُستاذ بالخروج من القاعة، وأقبلَ عليّ عددٌ من الحاضرين يطلبون منّي تقديم محاضرات أخرى في مناسباتٍ لاحقة. بصراحة، لم أكُن قادراً في تلك الساعة من الاستجابة لِما طلبوا. فقد كانت هذه تجربةٌ جديدةٌ جدّاً عليّ، ولكنّها كانت تجربةً مشجِّعة لما تردّد في تكرارها بعد ذلك.

وقد حدّثني سالم أحاديث كثيرة عن الشعور الوطني القومي بين الطلبة العرب في جامعة بوستن إلى جانب مشاعر المهاجرين العرب من أصول شامية. من ذلك حادثة طريفة حدثت بعد حرب 1956 عندما انتشر خبر أن الرئيس عبد الناصر سوف يزور أمريكا لشرح وجهة نظر العرب عموماً من العدوان الثلاثي. عزّز سالم من تحمّسه عددٌ من الطلبة

العرب، وقرّروا النزول إلى نيويورك لتشكيل حلقة حراسة حول الرئيس عند وصوله. وبالفعل نزل عددٌ من الطلبة العرب إلى نيويورك، وحاولوا الحصول على موافقة المسؤولين لتشكيل الحلقة المطلوبة. ولكن مع الأسف الشديد لم يحصلوا على موافقة الجهات الأمنية حول مبنى الأمم المتحدة وعادوا إلى بوستن في غاية الغضب والخيبة من موقف المسؤولين في نيويورك.

قال أبو غايب: حدّثني زميل آخر كان يدرس في شيكاغو في أوائل الستينات من القرن الماضي. قال هذا الصديق إن الرأي العام في أمريكا كان في حيرة من تصرّفات الحكومة العراقية في تلك الفترة. فشعَر عددٌ من الطلبة العراقيين بوجوب إقامة ندوات لتعريف الأمريكيين بحقيقة الأوضاع على مستوى الشعب العراقي، والتعريف بالعراق الذي كان الغالبية من الأمريكيين لا يفرّقون فيهِ بين العراق وإيران. فتحمّس أحد الشباب و اتّصل بالسفارة العراقية في واشنتن، طالباً خرائط وصوراً عن العراق لاستعمالها في محاضرات يقيمونها في مدينتهم للتعريف بالحضارة العراقية العربية. وبعد انتظار طويل ردّت السفارة بإرسال مجموعة من صور الزعيم الأوحد، و لم يُرسلوا أيّة خرائط للبلد ولا أيّ صُوَر عن الحضارة وعن صُوَر الحياة المعاصرة في العراق.

قلت يا أبا غايب، هذه الأحاديث استمرار للشعور العام أن كل الناس في الغرب سيّئون، ولا يُرجى منهم أي خير لبلادنا العربية، مسلمةً كانت أو مسيحيّة. ولكن هل لديك أمثلة لأناسٍ طيّبين في الغرب كما سَمِعته من بعض الأحاديث من الشباب الذين درسوا في تلك البلاد، لأن أحاديثهم أكثر صدقاً من كلام وسائل الإعلام، التي يسيطر عليها، في الغالب، أناسٌ مسيّرون ومُسَيّسون. قال أبو غايب: بلى، لديّ بعض الأمثلة. فثمّةَ بعض العائدين من الدراسة في أمريكا ، ممن لم يكونوا جاهلين عمّا يتحدّث عنه غيرهم من روائع ما أعرف، عند بعض الناس هناك، بل إنّهم من الإنصاف بحيث يتحدثون عن أمثلةٍ بعَينها تبيّن أن بعض الناس هناك ما يزالون يتمتعون بالاستقامة الأخلاقية، ويؤمنون بالعدالة. حدّثني أحد الشباب أنّه سمع بقدوم فرقة أوبرا لتقديم حفلات في مدينتهم. ذهب هذا الصديق واشترى تذكرتين له ولزميلته في الدراسة، وكان ثمن التذكرتين

أعلى ممّا يتحمّله طالب بعثة. ولكن الأوبرا كانت إيطالية وسوف تقدّم أعمالاً يندر حضورها في تلك الأيام. ولمّا ذهب صاحبُنا ووَصل إلى قاعة الحفلة قبل حوالي نصف ساعة وجد أن مكانَه قد أُعطيَ إلى شخص آخر، فاعترض على المُشرِف على إعطاء مكانه المُثبَت حسب رقم التذكرة. وكان الجواب أنه جاء متاخراً فأُعطيَ مكانُه إلى شخص آخر، ولكن يُمكن أن أُعطيكُما مكانَين في الصفّين قبل الأخير. كان ذلك عملاً مهيناً ومؤذياً جدّاً . وفي اليوم الثاني كتبَ صاحبُنا رسالةً شديدة اللهجة إلى الجهة المُنظّمة لتلك الحفلة، وسُرعان ما جاء الرَّد بالاعتذار الشديد، مع شيك بمبلغ التذكرتين كنوع من التعويض المادي. هل تعتقد يا أبا غايب بإمكان وجود مثل هذا التصرّف في بلادنا؟

وثمّةَ مثالٌ آخر سَمِعته من أحد الطلبة العائدين من البعثة، قد يعجبك سَماعُه. قال صاحبي إن في غالبية المُدن الأمريكية توجد محلات على جوانب الأرصفة لأجل إيقاف السيارات، و أمام كلّ موقع جهازٌ قائم على عمود، توضَع فيه النقود اللازمة لوقوف السيارة لنصف ساعةٍ أو أكثر. قال صاحبي إنه رأى مرّةً رجلاً متقدِّماً في السنّ يسير بموازاة أجهزة إيجار مواقع وقوف السيارات، ويتفقّد العدّاد أمام السيارة، فإذا رأى عدّاداً يشير بالأحمر لانتهاء مدّة الإيجار كان هذا الرجل يمدّ يده إلى جَيبه المليء بقطع ربع دولار ويضع قِطعةً في الجهاز ذي الإشارة الحمراء، لكي لا يأتي صاحب السيارة ويجد بطاقه الغرامة على السيارة بمبلغ غير صغير.

كان هذا الرجل يتصرّف على مستوى إنساني ويريد دفع الأذى عن أناسٍ لا يعرفهم، وقد لا يعودون في الوقت المناسب ليرَوه ويقدّمون له الشُكر.

قلت يا أبا غايب، هذه الأحاديث استمرار للشعور العام أن كل الناس في الغرب سيّئون، ولا يُرجى منهم أي خير لبلادنا العربية، مسلمةً كانت أو مسيحيّة. ولكن هل لديك أمثلة لأناسٍ طيّبين في الغرب كما سَمِعته من بعض الأحاديث من الشباب الذين درسوا في تلك البلاد، لأن أحاديثهم أكثر صدقاً من كلام وسائل الإعلام، التي يسيطر عليها، في الغالب، أناسٌ

مسيّرون ومُسَيّسون. قال أبو غايب: بلى، لديّ بعض الأمثلة. فثمّةَ بعض العائدين من الدراسة في أمريكا ، ممن لم يكونوا جاهلين عمّا يتحدّث عنه غيرُهم من روائع ما أعرف، عند بعض الناس هناك، بل إنّهم من الإنصاف بحيث يتحدثون عن أمثلةٍ بعَينها تبيّن أن بعض الناس هناك ما يزالون يتمتعون بالاستقامة الأخلاقية، ويؤمنون بالعدالة.

ثم سأل أبو غايب: هل يمكن تعميم طيبة النفس هذه على الكثير ممّن عرفت من العائدين من البعثات في أمريكا؟ قلتُ سمعتُ أن الأمريكيين من أصول جنوب أوروبا، و حوض البحر الأبيض المتوسط، قد يكونون أكثر طيبة وإنسانيةً من غالبية الأمريكان من أصول شمال أوروبية. قلتُ سمعتُ عن مواطن أمريكي من أصل إيطالي كان يعطف على الطلبة الأجانب بشكل خاص ، ربما لأنه يحسّ أن هؤلاء الطلبة الأجانب مهاجرون مثله ويعتقد بوجوب مساعدتهم بشكل خاص . كان هذا الإيطالي الأمريكي يسكن وحيداً في دار يملكها بعد أن توفيّت زوجته وصار يؤجّر غرفةً في داره لطالب أجنبي ويرفض تأجيرها لطالبٍ أمريكي . كان أحد المستأجرين طالب عربي مسلم يعود إلى الدار قُبيل منتصف الليل، بعد نهارٍ طويلٍ يقضيه
في الجامعة والمكتبة. كان هذا الرجل الأمريكي-الإيطالي اسمه <كارلو باروني> ينتظر عودة الطالب ويبادر بسؤاله: ماذا تغدّيت؟ هل تعشّيت؟ كيف اشتريت هذه الفواكه السيئة؟ وما هذه المعلبات من اللحوم والأسماك؟ إنها غير صحيّة على الإطلاق. أنا سوف أشتري لك ما تحتاجه من مواد غذائية من المحلات الإيطالية الكثيرة في حيّ <لا بيكولا إيتاليا> قال صاحبي :أيام الثلج الشديد أبقى في الدار و أ حضّر لي طعاماً من المعلّبات. كان سينيور باروني يُراقبني وأنا آكل السمك المعلّب إلى جانبه كأس من الماء . كان السينيور باروني يصيح بلهجةٍ أمريكية إيطالية: مع السمك يجب أن تشرب ڤينو وليس الماء لأن الخمرة تدوّخ السمك و تساعد على الهضم، بينما الماء يعيد السمك إلى الحياة في داخل المعدة، وهذا غير صحّي على الإطلاق. كان السينيور باروني يختار الفاكهة الممتازة حقاً ، من أصحابه الإيطاليين الذين لا يجرؤون علي غشّه في بضاعة يشتريها منهم ثم يحملها إلى الدار. وعند عود ة الطالب ليلاً تكون أول بشارة أنه

اشترى اليوم برتقالاً ممتازًا مع زيتون أسود فاخر ، ليس كما يوجد في المخازن الكبرى. يكون السينيور باروني وقتها ساهراً أمام التلفزيون، وسرعان ما يأتي ليجالس الطالب عند تناول العشاء ، ويبدأ بترديد ما رأى على التلفزيون ذلك المساء وصاحبنا الطالب يستمتع بالسماع لتلك اللهجة الأمريكية الإيطالية. مرّةَ سأل صاحبَنا الطالب وهو يتناول عشاءه : تعرف أسماء الكواكب السيّارة وعددها؟ أجاب الطالب: عطارد الزُهرة الأرض.... وعددها تسعة. قال السينيور :غلط ،عددها 7. وجدتُ ذلك في الإنسيكلوپيديا الإيطالية، وحَمل مُجلداً ضخماً تكاد أوراقه تتساقط ،لأنه مُجلد واحد مطبوع عام 1870ولا يمكن مناقشة المعلومات في إنساكلوپيديا إيطالية! هذا مثال لأمريكي من أصول جنوب أوروپية يختلفُ كثيراً عن الآخرين من الأمريكان الذين عرَف صاحبُنا النادر، من الدارسين في أمريكا.

-3-

قال أبو غايب: عندما كنتُ أشتغل في الخليج لمدّة قصيرة كان حولي بعض العراقيين الذين كانوا يتواصلون مع زملاء لهم في الكويت، وكان بعضهم يعمل في جامعه الكويت التي تأسّست حديثا. قال أحدهم: في عام 1967، قُبيل 5 حزيران بأشهر، قدِم إلى العراق بزيارة رسمية أمير الكويت، وكان بين المستقبلين أحد الأساتذة في جامعة بغداد. روى هذا الأستاذ لاحقاً أن أمير الكويت قال للرئيس العراقي بما يشبه العتاب: يا خوي حنّا سوّينا جامعة وانتو ما ساعَدتونا. فسأل الرئيس العراقي رئيس جامعة بغداد الذي كان ضمن المستقبلين عن ذلك الخبر، فأجاب أنّه لم يتصل بنا أحد و لا علم لنا بتأسيس جامعة في الكويت. فقال الأمير لكن رئيس الجامعة المصري قال إنكم لم تستجيبوا لطلبه، فرد الرئيس العراقي بقوله: أبشِر، أطلبوا ونحن جاهزون لتلبية طلبكم أيّها الأخ العزيز، فنحن فرحون بتأسيس أول جامعة في الخليج العربي. وكان أن جاء طلب جامعة الكويت بعد أسبوع من تلك الزيارة، فأرسلت جامعة بغداد منشوراً إلى جميع الكليّات بتقدّم الراغبين في العمل في جامعة

الكويت. وتقدم عدد غير قليل من أعضاء هيئة التدريس في جامعة بغداد، وغير قليل منهم من رؤساء الأقسام العلمية . وبعد شهر جاء جواب جامعة الكويت بتوقيع رئيس الجامعة المصري نفسه، الذي اختار رؤساء الأقسام فقط . قال صاحبي العراقي: ذهبنا إلى الكويت واستقبَلَنا أهل البلد بترحاب كبير؛ فقد كان الكويتيون في تلك الأيام يشعرون بروابط الأخوّة مع العراقيين . لكن سرعان ما وجدنا أن الجميع في جامعة الكويت، من رئيسها نزولا إلى أصغر موظف كان من المصريين. فكان وجودنا بينهم يُشكّل نوعاً من الحرج غير المُعَبّر عنه. قلنا لا بأس، فقد كان شعور العراقيين نحو المصريين يقوم على الإحترام الشديد لدور مصر في خدمة العروبة طوال عقدين قبل مُصيبة 5حزيران. قال صاحبي: وجدناعدداًغيرقليل من الأزهريين يقومون بتدريس مواد لا نعرف طبيعتها، ولكن لاحظنا أن جميعهم يركبون سيارات المرسيدس، وقد استأجر كلّ ثلاثة منهم سائقاً سودانياً يأخذهم إلى الجامعة صباحاً ويعود بهم بنهاية الدوام إلى بيوتهم، لأن أولئك الأزهريين لا يستطيعون سواقة السيارة. ولاحظنا كذلك أنّه بنهاية السنة الدراسية يقوم أولئك الأزهريّون بشحن سيارات المرسيدس إلى مصر. قال صاحبي: سألتُ أحد الزملاء المصريين كيف يشحنون تلك السيارات إلى مصر؟ فقال بالطائرة طبعاً، و في مطار القاهره يَجِدون عدداَ من المشترين ينتظرون لشراء السيارات المرسيدس، والدفع فوراَ قبل وصول الأستاذ الأزهري العائد من الكويت إلى داره في مصر. قال صاحبي: كنتُ أستغرب كثيراً هذا الإجراء وهذه البراعة في التجارة. وأضاف صديقي الأستاذ المصري أن هؤلاء الأزهريين عندما يعودون إلى الكويت في السنة اللاحقة، يشترون مرسيدس أخرى، ويعاودون نشاطهم التجاري السابق. قال صاحبي العراقي أنا إلى اليوم يصعُب عليّ تصديق ما سمِعته من الأستاذ المصري، ولكن مبروك عليهم!

وحدّثني صاحبي عن تصرّفات بعض زملائه من المصريين مما يتحرّج المرء عن ذكرها، لأنها لا تناسب الأستاذ الجامعي، مع أن الدافع فيها هو

المجاملة، مجاملة زادت عن حدود اللياقة. فاستعمال كلمات مثل: أمرَك يا بيه، تحت أمرك يا بيه، عندما تُقال من أكاديمي، يحمل الدكتوراه، في مخاطبة أحد الموظفين القلائل من أهل البلد، هو تصرّفٌ يُجانِب اللياقة، ومع الزمن يشجّع ابن البلد، الذي صار يصدّق من يقول "خدّامين سعادتك يا بيه" و شيئاً فشيئاً صار ابن البلد يتعالى على هذا الجامعي الذي يردّ على استغرابك من تصرّفه بعبارة: "ومالو، دول شويّة ب... تضحَك عليهم بكلمتين وتحصل اللي انت عايزه". ثم ذَكَرَ صاحبي حكايةً مُخزية من تصرّفات أحد الأساتذة " بتاع ومالو؟". قال سافر بعضنا إلى بلده في عطلة نصف السنة، وعاد بعد خمسة عشَر يوماً. وذات صباح أول يوم من العودة إلى الدوام وجَدنا أحد "اللي بالك فيهم" يهجم على "طلحة المسباح" ،(الرجل الوقور، خريج المدرسة المباركية فقط، الذي عيّنته الدولة"مدير الإسكان"لأعضاء هيئة التدريس في الجامعة الوليدة) ويُشبِعهُ عناقاً وتقبيلاً، قائلاً:دانتَ وَحَشتني أوي! أدرَكَ ذلك الوقور بحِسّهِ البدوي أن الدكتور إيّاه يطلب شيئاً من مدير الإسكان، فسأله: أمرَك، تَبي حاجة؟ فقال: أصل حماتي گاية تزورنا من المنوفيّة وعايزين إتنين بطانية. فالتفت الرجل إلى مساعدِهِ وقال: يا عدنان، وَدّي للدكتور بطّانيتين! قال صاحبي: لم أستطِع منع نفسي من التدخّل ،فقُلتُ للدكتور : يا رجل، البطّانية بدينار واحد من سوگ الحريم.ونحن اشترينا "إتنين بطّانية" نفرشها على الرمل عند البحر يلعب عليها الأولاد. يعني هل يستاهل هذا كلّ الرجاء والطلّب؟ لم يُجِب المحتَرَم بل إبتَعَد عن المشهَد. كان "طَلحة المسباح" إذا أقبلنا على مكتبه ، لأمرٍما، يُرَحِّبُ بنا أوّلاً ويطلب لنا الشاي، ثم يقول : شتامرون دكتور؟ بعد ذلك المشهد حول البطّانيّات وما تَبِعَ من أمثالهِ، صار الرجُل لا يَرفَع عينيه عن الجريدة بل يقول: عدنان، شوف الجماعة...هذه بعض نتائج تصَرّفات "الجماعة".

وحدّثني صاحبي كذلك عن موقِفٍ يثير الخِزي والعار، وقد لا تُصَدِّقهُ.قال إقتَرحَت الجامعة إرسال طَلَبة السنة الثانية من قسم اللغة الإنگليزية الناجحين إلى الثالثة إلى بريطانيا في الصيف للإلتحاق بدورةٍ لتَحسين

النُطق بلُغَتِهم الإنكليزية.كانت الدورة تكلّف 400 دينار، تدفع الجامعة منها 300 ويُساهم الطالب/ الطالبة ب100 دينار كويتي. فعُرِضَ المشروع في إجتماع القسم المكوّن من 20 عضواً،وذُكِرَأن أحد الطلاّب وهوفلسطيني، يعمل والده نجّاراً في الكويت، لايستطيع توفير المِئة دينار،فاقترحت رئيسة القسم أن يُساهم كلٌّ من الأعضاء العشرين بخمسة دنانير لجمع المئة دينار وتسهيل التحاق الطالب الفلسطيني مع زملائهِ في تلك الدورة الصيفيّة. لكن أحد "الگدعان" احتَجّ بشِدّة وقال لرئيسة القسم: أنتِ رايحة رئيسة للمجموعة ولا تدفعين شَيئاً، فلماذا لا تدفعين أنتِ المئة دينار بدل ما تُكلّفينا نحن؟ قال صاحبي : لم أستطِع السيطَرَة على غضَبي، فصِحتُ: مش عيب يا گماعة! الواحد فيكم يروح ويّا مراتو ياكل غَدا كباب ويدفع 5 دينار، أو يشتري لها گزمة بأكثر من 5 دينار. مش عيب تستكثروا على طالب دول القرشينّ!

قال صاحبي إن زوجته قالت له: هذول راح يزعلو.وفي صباح اليوم الثاني،عندما دخل صاحبي وزوجته إلى غرفة القِسم فاجأهما المعتَرِض يوم أمس بابتسامة مع: صباح الخير يا دكتُر، صباح الخير يا مَدام!

ما رأيُكَ في هذه المشاهد يا أبا غايب؟

كان صاحبي يتألّم كثيراً من هذا النوع من التصرّف الذي يخرج عن أدب المجاملات، ويبدو تعبيراً عن الخنوع والشعور بالحاجة الشديدة للوظيفة التي هو فيها. وكان صاحبي يُكثِر من المشاجرات مع زملائه المصريين، ويقول لهم: صحيح أن راتِبك هنا أكثر من أربعة أضعاف راتبك في مصر، ولكن الآخرين بحاجة شديدة إليك أكثر من حاجتك إليهم. لم تكن هذه المشاجرات إلاّ لتزيد من التنافر بين صاحبي وزملائه المصريين. وهو في الواقع يقصد خيراً و يريد لزُملائه أن يحتفظوا بكرامة الأستاذ الجامعي، على الرغم من الظروف المادّية الصعبة التي كان يعانيها في بلده قبل المجيء إلى الكويت.

قال صاحبي: في ظهر أحد الأيّام، عند انتهاء الدوام الصباحي، كنتُ أسير نحو سيّارتي للعودة إلى الدار، فإذا بأحد طلبتي يسير خلفي ويستوقفني عند دخولي السيارة، فسارع بالدخول إلى المقعد الخلفي ،فقلتُ له أنا رايح للسالميّة، هل أنتَ على طريقي؟ فلم يُجِب، بل سمِعتُ خَشخَشةَ كيس وَرَقٍ أخرج منه الطالب قميصاً بغلافه السيلوفين وعلبة عطرٍ نسائي. قُلتُ: ما هذا؟ قال رأيتُكَ أوّل أمسِ في السوق تسأل عن قميص أبيض قياس 45 لم يكُن موجوداً عند ذلك المحل، وهذه هديّة بسيطة للمدام! فصرختُ بهِ: إنزِل فوراً أنت وهداياك وألاّ عملتُ فيك ما لا يُعمل. فنزِل وهو يحملُ ما جَلَبَ معه قائلاً: ليش زعلان؟ يَماعتك كلْهم خَذَوا...

على مستوى أكثر خطورة قال لي صاحبي إن رئيس الجامعة افتتح العام الجامعي بخطاب في قاعة كبيرة مليئة بجميع العاملين في الجامعة، قال فيه إن الجامعة في خدمة المجتمع الكويتي، وإذا طلبت أيّة جهة رسميّة كويتية من أحدٍ منكم أن يقدّم خدمةً أو دراسة تفيد الكويت، فيجب أن لا يتردّد للحظة، وأن يقوم بالعمل دون توقّع أية مكافأةٍ أو أجور. ثم إن التدريس الخاص خارج حدود الجامعة ممنوع منعاً باتاً . ولو قام أحدُكم بإعطاء دروس خصوصية لقاء أجور فلَن يبقى في هذه الجامعة دقيقتين! قال صاحبي: لقد استغربتُ هذا الكلام وسألتُ الأستاذ المصري الجالس إلى جانبي في القاعة: هل هناك من أستاذ جامعي يعطي دروساً خصوصيةً لقاء أجور؟ فكان الجواب: أمّال إيه يا بيه؟ كانت هذه الملاحظات من رئيس الجامعة قد أغاضت صاحبي جدّاً وبخاصة الإشارة إلى أن الأستاذ الجامعي يمكن أن يُعطي دروساً خصوصيةً لقاء أجور.

وفي تلك السنة الأولى للجامعة الأولى في الخليج كانت الجهات الرسمية تحاول الإفادة من كفاءات الأساتذة خارج حدود الجامعة. قال صاحبي: إتّصل بنا مدير التلفزيون في الكويت وطلب تقديم حلقات إعلامية في موضوعات ثقافية حول تاريخ العرب وثقافتهم. ذهب صاحبي مع اثنين

من زملائه، أحدهم سوري والآخر مصري أزهري. وصار الثلاثة يقدّمون أحاديث كل أسبوع ، نالت كثيراً من الإعجاب من جانب المشاهدين في البلاد. ثم طُلِب من صاحبي تقديم حديث بالانكليزية لمدة نصف ساعة في الأسبوع حول موضوعات ثقافية عربية وتراثية بالدرجة الأولى. وقد قام صاحبنا بتقديم الأحاديث الأسبوعية باللغة الانكليزية من راديو الكويت. وبعد حوالي الشهر طلبَهُ مديرُ الإذاعة وكان شديد الفرح وأخبره أن لديهم مراقب في لندن يقدّم تقريراً عن المناهج الإذاعية باللغة الانكليزية من راديو الكويت، وكان آخر تقرير لذلك المراقب من لندن يقول عن أحاديثك الأسبوعية إنها " الأفضل ممّا يُقدّم بجميع المقاييس". لذلك قرّرنا أن نقدِّم إليك وإلى زملائك مكافأةً صغيرةً في آخر الدورة الإذاعية. أجابَه صديقي شاكراً وقال إن مدير الجامعة قد حذّرنا من قبول أيّة مكافأة، ولكنّي سأراجع المدير حول هذا الأمر. قال صاحبي كلّمتُ مدير الجامعة بعد يومين حول مكافأة الإذاعة فأجابني بغضب: ما فيش مكافأة. دي لايحَه. فقلت له: معليش ناخذ المكافأة ونقدّمها مساعدة للمقاومة الفلسطينية. إستمرّ المدير في عنادهِ قائلا لايحه يعني لايحه. بصراحة يا صاحبي لم أفهم معنى اللايحه حتى شرحها لي أحد الزملاء المصريين أنها قانون. أجَبتُه: كيف يعمل مدير الجامعة قانوناً يَمنع تقديم مساعدات إلى المقاومة الفلسطينية في تلك الشهورالقليلة بعد5 حزيران!

ولكن هذا لايعني للحظة واحدة أن هذا المثال من الأساتذة هواة التدريس: الخصوصي هو الغالب. فقد كان هناك عدد من الأساتذة الفضلاء خُلُقاً وعِلماً مثل الأستاذ الدكتور حسين مؤنس المؤرخ الكبير والذي يمثل الجيل القديم من المصريين الذي لا ينطق بجملتين إلاّ وجاءت الثالثة نكتةً

بارعةً مهما كانت الظروف المحيطه به. وثمة الأستاذ اللغوي الكبير والمحقق البارز الأستاذ الدكتور عبد السلام هارون. ثَمّة أساتذه بارزون في علوم القانون والحقوق، لكن المثال السَيء هو الذي يطفو على السطح، وتحت الرَغوةِ اللبنُ الفصيحُ . ذكر لي صاحبي الذي عمل في جامعه الكويت في بداية تأسيسها أنه لاحظ في قاعة الامتحان طالباً متقدِّماً في السن عن بقية الطلبة في دراسة الحقوق. كان هذا الطالب يُخاطب المُراقب بلغةٍ شديدة التهذيب. وبعد الامتحان سأله المراقب كيف اتفق وجوده بين هذا العدد من الطلبة الشباب. فقال إنه يريد الحصول على شهادة في الحقوق. فسأله صاحبنا : وماذا تعمل حالياً؟ قال أنا محامي. فاستغرب صاحبي وسأله: كيف تمارس المحاماة وأنت الآن تسعى للحصول على شهادة في القانون والمحاماة؟ كان جوابه: عندنا كل شي ماشي. وذكر لي صاحبي مثالاً من كل شي ماشي عندنا قصةَ طالبٍ رَسَب مرّتين في سنتين متتاليتين، وفي اجتماع آخر العام الدراسي برئاسة رئيس الجامعة عُرِضَت بعض حالات يمكن تسويتها بإضافة درجتين أو ثلاثاً على المعدل الأخير للطالب لكي يعتبر ناجحاً. قضية الطالب الراسب مرتين في سنتين متتاليتين كانت ممّا لا يمكن المناقشة في وضعه، حسب قوانين الجامعة. عرض الرئيس هذه الحالة وقال: أقترح تمشية أمور هذا الطالب واعتباره ناجحاً "لأسباب إنسانية". قال صاحبي: كنتُ حاضراً في هذا الاجتماع وعلى جانبي الأستاذ الدكتور عبد السلام هارون ، فقال بصوت مسموع : هذا الطالب كان عندنا في دار العلوم بالازهر، و رسب سنتين متتاليتين وفُصِلَ من الدراسة، والآن يرسب سَنتين متتاليتين في جامعة الكويت و تريدون اعتباره ناجحا؟ هل حدث هذا في أي جامعة في العالم؟

وحدّثني صاحبي عن قصة عجيبة أخرى. قال اجتمعتُ في أحد المناسبات بشاب كويتي قال إنه حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة أوروبية كبرى، فسألته: في أيّ موضوع؟ قال: في اللُقى. سألته: اللقى في الآثار المصرية أو في آثار العراق القديم؟ قال لا، في اللُقة

الانكليزية.سألته: في أيّة سنةٍ تخرّجت وأنت هنا منذ سنين؟ قال أنا لم أداوم في تلك الجامعة، لكن حصلتُ على الشهادة! أضاف صاحبي أن ذلك "اللُقَوي" طالبَ بعد سنة أن يكون رئيس قسم "اللقى" الانكليزية وآدابها في الجامعة!!

بدا على صاحبي الصبور شيء من الضيق لكثرة الأمثله التي أوردتُها عن أناس لا يمكن أن تفخر بهم مجتمعاتُهم. فسألني قائلا: ألا تحوي ذاكِرتك أمثلةً لشخصيات تعرّفتَ عليها وتركت لديك انطباعات جيدة؟ قلت بلى، في أيام الخير في العراق، كان موسم المربد الشعري يُعقد كلّ سنةٍ ويدعى اليه شخصيات كنّا نسمع بها أو نقرأ لها ولكن مؤتمر المربد يتيح لنا مقابلة تلك الشخصيات من كبار الأدباء والشعراء في العالم العربي، وبخاصة من بلاد المغرب العربي، لأن القليل منّا كانت لديه فرصةٌ للسفر الى بلاد المغرب العربي. فوجود أولئك الشخصيات في بغداد خلال موسم المربد كان يشكل سعاده خاصه لنا نحن شباب تلك الأيام. أما الشخصيات المصريه التي كانت تدعى إلى مؤتمر المربد فقد كانت تثير فينا الرغبة في العودة إلى أعمالهم الأدبية من شعر ومسرح. أذكر حادثةً طريفةً في أحد تلك المواسم الشعرية، إذ كان بين أبرز المدعوين الشاعر المصري أحمد رامي. كنّا نتحَلّق حوله لنسمعَ أحاديثه عن ترجمة رباعيّات الخيّام، وتعليقاته التي كانت لا تخلو من النكات المصرية المشهورة. في أحد أيام المربد أخذونا لزيارة سامرّاء، العاصمة العباسية الثانية. وكان المقرّر في أحد أيّام تلك الزيارة أن نرتقي المئذنة المَلويّة الشهيرة فيها. وكان بعضنا يحيط بالشاعر أحمد رامي على أمل أن نسمع تعليقاته وهو يَرتقي تلك المئذنة. ولكنّه خَيّب أملنا إذ اعتذر ببيتٍ من الشعر لا أذكُر صدرَه بالضبط، ولكن الذي بقي في ذهني منه: " فاذهبوا أنتمُ بكلِّ سلامٍ" أو ما يشبه ذلك، ولكن عجز البيت أذكُرُه بدقّة، لأنه كان مفاجئا، إذ قال" وأنا بَعدَكُم أُشَعشِعُ كأسي" وسارعَ بإخراج "بطحة زحلاوي" من جيبه وأخذ منها "مَصَّة". فانطلقت الضحكات والتصفيق لذلك التخلّص البارع من ارتقاء المِئذنة الملويّة التي ربما كان

يخشى أن لا يحتفظ على توازنه لو أنّه حاول الصعود إلى ذلك العلوّ الشاهق .

وحدثني صاحبي عن صديق آخر له عمل في جامعة خليجية أخرى. قال كانت الأيام بعد غزو الكويت عام 1990 أيّاماً صعبة على العراقيين بشكل خاص، لأنه كان يسري شعورٌ بين بعض أهل الخليج أن كلّ عراقي مساهمٌ بنو عٍ أو آخر في غزو الكويت. وهذا بالطبع شعورٌ بين بعض السذّج من الناس. كان صاحبي في ذلك الصيف في ڤيينا وكان يلاحظُ عدداً كبيراً من أهل الخليج، تَعرفهم بدشاديشهم البيضاء، يزورون المنطقة الواسعة خلف الأوپرا الشهيرة. وكان في أحد فروع تلك الساحة الواسعة أحد النوادي الليلية المتخصّصة في رقص التعرّي، ولكنها في الصيف تضيف حفلات صباحية، قيل إنّها لإنعاش الموسم السياحي الذي يعتمد أساسا علي الكثير من الزوار من منطقة الخليج. وفي تلك الساحة الواسعة خلف الأوپرا يوجد الكثير من معارض الملابس والحلي والتحف الفنية. ولكن لا تجد من يهتم بها إلاّ الصبايا والنساء من أهل الخليج. كانت تلك المنطقة السياحية الراقية هادئةً جدّاً، لا تدخلها السيارات ولا تسمع فيها أصواتاً عالية، إلاّ من بعض أولئك السوّاح الخليجيين. مرّةً، قال صديقي، كنتُ أسير في تلك المنطقة فسمعتُ صَبيّةً كويتيةً تصيح بأعلى صوتها لتُسمعَ صديقتَها الواقفة أمام معرض آخر يبعد قليلا عن هذه الصبيّة التي صاحت: تعالي تعالي شوفي هذا الإسكرپين و هذا المايوه. لكن الرجال كانوا متجمّعين أمام ذلك النادي الليلي-الصباحي يتصايحون بإعجابٍ عن هذه الصورة أو تلك الصورة التي تبيّن الراقصات لابسات "من غير هدوم". ولكن عندما أُعلن خبر الهجوم على الكويت تغيّر المنظر في تلك المنطقة السياحية المزدحمة وصارالتجمّع حول أكشاك التلفونات، والجميع يحاول الاتصال بأهله في الكويت، وعلى الوجوه علائم الرُّعب لمحاولة السؤال عن تفاصيل ما حدث. لكن أبواب النوادي الليلية خَلت من السواح، ثم خلَت الساحة الكبرى خلف الأوپرا من الباحثات عن الإسكرپينات والمايوهات.

وأكمل صاحبي حديثه الممتع، على ما يثيره من ألَمٍ وحسرةٍ عندما يتذكّر المرء الألوفَ المؤلّفةَ من الأُسَر العربية التي لا تجِد لها ما يُقيم أوَدَها من ضرورات العيش، ثم يجِدُ هؤلاء المُترَفين الذين لا يعرفون ما يفعلون بأموال تكدّست عليهم دون أن يتعَبوا بتحصيلها، وهمّهم الهرب من طقس بلادهم إلى بلد هو الحضارة والتاريخ والفن والموسيقى التي لا يفهمون منها شيئاً ، ولا تعنيهم أساساً. والذي يستهوي نساءهم وبناتهم هو المايوهات والإسكربينات. أمّا جوهرة الموسيقى السمفونية القابعة وراء ظهورهم فهي تعود إلى عالمٍ غير عالمهم، فلماذا يُلامون؟

قال صاحبي تذكّرتُ هذه المشاهد في جامعة خليجية أُخرى في الأيام التي أعقبت غزو الكويت. كانت دول التعاون الخليجي حريصةً على حماية الكويتيين الذين كانوا في الخارج، ولم يستطيعوا العودةَ إلى الكويت بنهاية الصيف. ومن تلك البلاد الخليجية التي تحدّث عنها الصديق أن الجامعة في تلك البلاد استقبلت مُدرِّسة كويتية متخصّصة في علم الإجتماع، كما قالت، وعيّنَتها في كليّة الطالبات في الجامعة، ريثما تنتهي مشكلة الغزو لتعود إلى الكويت. كان منظر هذه الدكتوره يُثير كثيراً من التعليقات. فقد كانت تأتي إلى الجامعة بوجهٍ تغطّيه جميع ألوان القوس قزَح، وذراعاها مُثقلتان بأنواع الأساور الذهبية وبعضها بهِ أجراسٌ تَرنّ كلّما حرَّكت ذراعاً دونما سبب. والأغرب من ذلك كله أن هذه الدكتورة في علم الإجتماع لم يجدوا لها موضوعاً تدرّسه، فطلبوا إليها أن تُدرِّس التاريخ. كانت هذه الدكتورة تأتي إلى غرفةِ الأساتذة متذمّرة من ضعف مستوى الطالبات، ومن تدنّي مستوى الكتب المقرّرة. تصوّروا، قالت مرّةً، أن كتاب التاريخ الرسمي يذكر أن الأسرة الفرعونية السادسة حكمَت من 1148 إلى 1104 قبل الميلاد، وهذا خطأ كبير. يجب أن يكون من 1104 إلى 1148 قبل الميلاد. لم يستطِع الجالسون في غرفة الأساتذة إخفاء استغرابهم، بل إن أحدهم أطلق ضحكةً من عبقريّة الدكتورة الإجتماعية.

قال أبو غايب مع ابتسامةٍ لا تُخفي شيئاً من البَرَم على وجهه: يبدو أن حديثنا عن بلاد الخليج لن ينتهي. تُرى هل لديك أيّ قصصٍ طريفةٍ عن بلاد النفط الأخرى ومن مصادر غير عراقية، لكي لا يتصوّر بعض الناس أن العراقيين يحملون مشاعر معيّنة تجاه الكويت أو دول الخليج الأخرى؟ قلت: إسمع هذه من طبيبٍ عربي اشتغل في بلدٍ نفطي مُترَف لا يجد مواطنوه ما يفعلون فيه بالأموال المُحمّلة على ظهورهم. روى لي هذا الطبيب المتَخرّج من جامعةٍ شهيرةٍ في ألمانيا أنه حصل على وظيفةٍ في مستشفى بذاك البلد النفطي براتبٍ طيّب. ولما وصل إلى البلاد وجد أن المستشفى يَملِكُهُ أحد المواطنين الذي لا يكاد يعرف كيف يكتب اسمَه. لكن المستشفى كان مُجَهّزاً بأجهزةٍ حديثةٍ مُستَوردةٍ من ألمانيا على وجه الخصوص. فارتاح صَديقنا الطبيب وتأمّل خيراً من العمل في ذلك المستشفى. انتشر في البلاد خبرأن ذلك المُستشفى قد تعاقد مع طبيبٍ متخصِّصٍ من ألمانيا. وقد ظهر لاحقاً أن صاحب المستشفى قد أعلن بشتى الوسائل عن ذلك المستشفى وطبيبه المتخصص في ألمانيا. بدأ المرضى يتوافدون على ذلك المستشفى، مما أبهَجَ صاحبَه الذي كان يتصرّف كصاحب دكان تكاثر عليه المشترون لما يعرض من بضاعة. وبعد فترةٍ تفاجأ الطبيبُ بصاحبِ المستشفى يفتح عليه الباب، خلافاً للحفاظ على السرّيةِ المفروض توفيرها في حديث المريض مع طبيبه. صاح صاحب المستشفى: يا دكتورأنت تستغرق وقتاً طويلاً في فحص المرضى، والمنتظرون كثيرون. ثم إنّك لا تطلب صور أشعّةٍ من كل مريض يدخل عندك ، وتختصر وصف الإبَر والحقَن الطبّية، وهذا يضرّ في مصلحَتنا. إحتار الطبيب كيف يجيب هذا المواطن، الغنيّ بمالهِ الفقير في ذوقهِ في التعامل مع من فوقه في كل شيء ما عدا ما يملك من مال. قال صاحبنا الطبيب بلهجةٍ حزينةٍ إنه لم يَستطِع إكمال السنة الأولى من عقدِهِ مع ذلك المستشفى الخصوصي، فترك البلد غير آسفٍ على تلك الوظيفةِ التي كانت تَدُرّ عليه من المال أكثر من دَخلهِ في بَلدِهِ الأصلي.

قال أبوغايب: هذا مثالٌ مُحزِنٌ مُخجِل يُشبه ما سمعنا عن أثرياء الحرب الذين وجدوا أنفسهم أغنياء فُجاةً ولم يعرفوا ما يَجب أن يفعلوه بالثروة التي انهالت عليهم دون تعبٍ منهم . فتصرّفاتهم هوجاء لا يتحكّم فيها منطقٌ ولا عقلٌ ولا ذوق. سمعتُ من أحد الأصدقاء الذين عملوا في بعض دول الخليج، أيام طفرَة الغنى غير المتوقع، وتراكم المال في أيدي من لا عَهدَ له به، وقد ظهر ذلك في تصرّفات أولادهم الذين تيسّر لهم من المدارس والتعليم ما لم يتيسّر لآبائهم سابقاً. فقدكان من المألوف رؤية الخادمةالهندية أو الجنوب-شرق آسيوية تقتاد طفلاً إلى داخل المدرسة ثم إلى داخل غرفة الصف وتَضع إلى جانبه الساندويش وترموس الحليب ثم تنصرف بعد التحدّث إلى المعلِّمة لتطمئِن أنها ستتابع حاجات الطفل. والآن جاءت الجامعة، وظهر فيها نوعٌ آخر من "الدَلَع" . فهذا "أحَد الجدعان" يدخل الجامعة من الباب الممنوع الدخول منه، لكنّه يقود سيّارة من الدفع الرباعي، ليوصِلَ إبن الشيخ إلى أقرب نقطة إلى غرفة الدروس، ثم يحمل له الكتب إلى داخل القاعة. ومع بداية الفصل الثاني من السنة الجامعية، وَرَد نداءٌ هاتفي إلى سكرتيرة القسم العلمي يسأل من سوف يُدَرِّس الموضوع الفلاني هذا الفصل، فلما قيل له :الأستاذ الفلاني، قال : أرجو إلغاء إسمي من ذلك المساق العلمي للفصل القادم، رجاءً. وبعد ذلك جاء سائق رباعيّة الدفع وسأل الأستاذ بكلّ صلافة: إزّاي تدّي إبن الشيخ 65؟ دا إحنا واخدين على90 وفوء!

وظهر في الجامعة الوليدة أمثلةٌ من التصرّفات الطائشة بسبب ما في أيدي هؤلاء الأبناء من أموال لم يتعبوا هُم ولا آباؤهم في جمعها. مثلاً، روى لي أحد أبناء بلادنا أنه كان يُدرِّس في هذه الجامعة الناشئة، فدخل ذاتَ صباحٍ أحَدَ صفوف الدراسة فشمّ رائحة عطرٍ نفّاذة. وإذ كان يقتربُ من أحد الطلاب وَجَدَ أنه مصدر ذلك العطر الفاغم. فسأله: ما هذا؟ أجاب الطالب: هذا عطر شانيل نوميرو سانك، وسعره خمسة دنانير! فقال الأستاذ: ولكن هذا عطرٌ نسائي. أجاب الطالب: كُلّه واحد، طالما هو عطر طيّب الرائحة، وأنا أستعمله بعد حلاقة الذقن صباحاً. لم يَدرِ

الأستاذ كيف يعلّق على ذلك التفاخر الغرير. وذكرَ لي ذلك الصديق أنّه دَخل مرّةً إلى غرفةِ صفّ لم يَجِد فيها طلبَةً لكنّه وَجَد نُسخةً فاخرةَ التجليد من ديوان شعر جاهلي، فحَمَل الكتاب وكتبَ على اللوحة في الصف بخط كبير: على من ترك ديوان الشعر الجاهلي أن يُراجعني في غرفةِ الأساتذة لتَسلّم مانَسِيَهُ في الصف. ولكن أحداً لم يأتِ لاسترجاع ذلك الكتاب. ذَهَبَ الأستاذ إلى أحد الإداريين في الجامعة وأخبَره بحكاية الكتاب المنسي وطلبَ منه أن يحاول معرفة صاحب الكتاب ليعود ليتَسلّمَه. ولكن مضت الأيام وضاع الطالب وكتابُه معاً. نحن هنا نَحرص على الكتب التي نقتنيها وندفع أثمانها مبالغَ غير قليلة، ولا يهون علينا أن نفقُدَ كتاباً ولا نسأل عن مصيره. هل يبدو هذا موقفاً غير طبيعي هذه الأيام؟ أم أن المال الذي ضلّ طريقَه إلى بعض الناس قد أعمى بصيرَتهم وأبصارهم؟

قال أبو غايب: هل سمعت بسباق الإبِل؟ سباق الخيل معروف من أقدم الأزمنة، و منظر الخيول المتسابقة جميل. ولكن الإبِل بطيئة الحركة، وإذا أسرَعَت فليس في منظرها أي رشاقة أوجمال. كان أصحاب الإبل المتسابقة يستأجروين فتياناً ،من الباكستان غالباً، لا تزيد أعمارهم عن اثنتي عشرة سنةٍ ليركبوا ظهور الإبِل في ركضها في السباق، لأن الفتى خفيفَ الوزن على ظهر البعير ممّا يساعد البعير على الركض. روى لي صديقٌ شاهدَ حادثةَ مؤلِمةً مُخزية تعثّرَ فيها أحد الجِمال المتسابقة وسَقطَ الفتى الراكب على ظهرهِ مما تسبّب بأذى شديد للمسكين، فنُقلَ فوراً إلى أقرب مستشفى لعلاجه. ولكن تَفاجأ الواقفون أمام ذلك المستشفى بصاحبِ بَعير السباق يركض وبيَده خَيزرانة يُريد دخول المستشفى ليضربَ الفتى المسكين لأنّه كان السبب في خسارة البعير ذلك السباق! كيف تنظر الى هذا التصرف اللاإنساني؟ هل أصبح المال عند بعض البشر أكثر أهمّيةً من مصير بعض البشر؟

-4-

قال صاحبي أبو غائب لقد تكلّمنا كثيراً عن أبناء بلدنا الذين تواجدوا في بعض البلاد المجاورة أو في البلاد الغربية، يا تُرى هل لديك أمثلةٌ أخرى عن عراقيين قد قضوا أوقاتاً في بريطانيا أو في غيرها من البلاد الأوروبية؟ قُلتُ: بلى، أخبرني أحد الزملاء الذي ذهب إلى بريطانيا لأول مرّة في حياته وبقي حوالي شهر في الصيف. كان هذا الصديق يجد كثيراً من الأشياء غريبةً عن ما تعوّد عليه في بلادنا. فمثلاً كان يَعجبُ أشدّ العَجَب لماذا في بريطانيا تكون سواقة السيّارات على الشمال من الشارع بدلاً من يَمينه، كما هو الحال في بلاد الله التي سمع عنها أو زارها! لذلك كان شديد الحذر، كما أخبرني، عندما يحاول النزول من الرصيف ليقطع الشارع إلى الجهة الأخرى، حتى لا ينصَدِم بسيارةٍ قادمةٍ من الجهة الثانية، والتي لم يتعوّد عليها. والذي أعجبَ صاحبي كثيراً أناقة شرطة المرور وأسلوبهم اللطيف في معاملة الناس، وبخاصة في معاملة السوّاح و القادمين من بلاد أخرى، وسُرعان ما يُدركون أنهم من غير أهل البلاد، إمّا بالتطلّع إلى ملابسهم أو طريقة مَشيهم، أو ملاحظة لهجَتهم عند النطق بالإنكَليزية. ربّما سبق أن حدّثتكَ عن رُخصة السَوق الجديدة التي نسيَها صاحبي في بغداد قبل القدوم إلى بريطانيا، وكيف كانت رَدّة فعل شُرطيّة المرور، ذات السبعين ربيعاً ، في تَطمينه إلى عدَم حاجته لرخصة سَوق بريطانية إلى جانب الرخصة القديمة التي يحملها، لأنه "ضيف بريطانيا العظمى"!

وعلى ذِكرالسواقةعلى شمال الشارع، قال أبو غايب إن زميلاً له قد حصل على الدكتوراه في الأدب العربي من القاهرة، ثم حَصل على وظيفة للتدريس في الجامعة الإسلامية العالمية في العاصمة كوالا لمبور في ماليزيا، حيث سواقة السيارات على شمال الشارع كذلك. كان هذا الزميل لا يتوقّف عن الحديث عن إعجابه بالبلاد والناس في ماليزيا. فالناس هناك مسلمون في الأعمّ الأغلب، لكن نسبة الصينيّين كبيرة في البلاد، إلى جانب الهنود والأقوام الأُخرى. قال ذلك الزميل إنّه وجد الماليزيّين في حياتهم و تعاملاتهم أكثر التزاماً بتعاليم الإسلام من كثيرٍ من العرب المسلمين. فقد كانوا يحافظون على الصلاة في أوقاتها، وشهر

رمضان له هيبة خاصة عندهم. وقد وجدتُ ظاهرة لم أجِد مثلها في البلاد العربية الإسلامية التي زُرتُها أو عِشتُ فيها ، ظاهرة كانت معروفةً في صِباي، وأحسَبُ أنها قد تلاشَت، وهي الأحتفال بالأولاد عند خَتم القرآن الكريم. قال صاحبي: دعاني والد أحد طلاّبي، أنا وزوجتي، إلى حفلة خَتم القُرآن الكريم في دارهم في العاصمة، فذهبنا لنجد الشارع الذي يقع فيه الدار قد أُغلِقَ طرَفاه بمقاعِد خشبية، لمنع دخول السيّارات، ولم يعتَرِض أحدٌ من الرسميّين أو الجيران. كان المدعوّون يسيرون إلى الدار التي ترتفع منها الأدعية والأذكار وأصوات الفتى يُرَتّل الآيات وتتبعه أختُه بالتلاوة. ولما دخلنا وجدنا الجميع جالسين على المفارِش في أرض الغُرفة الكبيرة، والغُرَف الأخرى والممرّات، والكلّ يُردِّدُ الصلَوات والأدعية والتبريكات للولدَين. وخارج الدار، في الشارع،إمتَدّت الموائد بأنواع الطعام، يقوم على تقديمه للمغادرين إثنان من الأهل أو الأصحاب . وكان علينا تهنئة الولَدين اللَذَين لم تتجاوز أعمارهما الثانية عشرة أو أكثر بقليل.
قال صاحبي أنّه في مروره إلى مكتبة الجامعة مرّةً، وجَدَ في زاوية أحد الممرّات بعض الكُتُب مع حقيبة يد نسائيّة صغيرة. فقال في نفسِهِ رُبّما تعود صاحبتُها قريباَ لأخذ ما ترَكَت هناك. ولكنّه في اليوم الثاني وجد الكُتُب في مكانها فذهب لإخبار موظفة المكتبة التي قالت: لا بأس،ستعود صاحبةالكُتُب لأخذها، فعندنا لا يأخذ أحدٌ شيئاً ليس له، فاطمئِن!
و ثمّة مسألةٌ ليتنا نتبعها في بلادنا العربية، وهي تحديد تواريخ بداية السنة الهجرية و رمضان والأعياد بطريقة علميّة دقيقة تستند إلى الحسابات الفلكيّة. فقُبَيل بدء السنة الميلاديّة تُعلَنُ رسميّاً صفحة تقويم مفَصّلة، تبيّنُ باليوم والساعة والدقيقة، بداية ونهاية الأشهر القمرية، وبداية رمضان والأعياد والمناسبات الإسلامية، فينظِّم الناس أعمالهم دون انتظار رؤية الهلال ليلة رمضان أو ليلة العيد.وقال صاحبي إن إعلان البلاد العربية الإسلامية تلك المواعيد كان يأتي دائماً مطابقاً للتقويم الماليزي.
وأضاف صاحبي أن ثمّةَ بعض الطرائف عن بعض الماليزيين المسلمين في تقَبّلهم كُلّ ما يُقال لهم إنّه إسلامي، فيقبلونه دون مناقشة.مثلاً، تلك الشابّة المتخَصّصة في طب العيون من بريطانيا، المعتزّة باسمها"الإسلامي"...ماجِنَة! سألها صاحبي: هل تَعلمين معنى هذه الكلمة؟ قالت إنه إسم إسلامي وَقعُهُ جميل على الأذن الماليزيّة، وهذا يكفي! ولم

يشأ صاحبي أن يفَسِّر لها المعنى لتلك الصفة بالعربية، دَفعاً للإحراج. وثَمّة<زارول> الموظف في قسم الحسابات. ما معنى إسمك بالماليزي؟ قال هذا إسم إسلامي أصله" زَهرُالإسلام"ونحن نختصر بعض الأسماء ولا نلفظ الهاء والعين والضاد مثلاً، فأصبح : زارول...أضاف صاحبي أن أحد طلاّبه كان اسمه:زاني! فلما سأله إن كان يدري معنى الأسم، قال: جدّي الحاج هو الذي يختار الأسماء للعائلة، وهذا الإسم مذكورٌ في القرآن، ألا يكفي؟ وعمّي رُزِقَ بابنةٍ إختار لها جدّي إسم : زانية! و لم يشأ صاحبي أن يُفَسِّر لهذا الطالب النجيب السياق الذي ورد فيه عقاب الزاني والزانية، وعدد الجلدات التي يستحقّها كلٌّ منهما. أمّا "الأقمش" من هذا فهو إسم موظفٍ إلتحَق بالجامعة حال تخرّجه بدكتوراه العلوم الإسلاميّة، لا ندري من أيّة جامعة، فتَعَيّن مديراً لمركز الأبحاث في الجامعة! كان هذا الشخص يشبه من خرَج للتوّ من غابات ماليزيا الكثيفة، لكنّه كان يُقَدِّم نفسه بإصرار: الدكتور خالق!سأله صاحبي في أوّل لقاء: تقصد عبد الخالق؟ قال :لا، خالق، هل أنت مسلم و تعرف عربي؟ ما رأيك يا أبا غايب في من يتحدّاني إذا كُنتُ مسلماً، ثم أنت "يفتهم أرَبي"؟ والآخر اختار له جدّه إسم < ذو القرنين> لأن الإسم وارِدٌ في القرآن، لذا يجب أن يكون إسماً جيّداً. ما رأيك يا أبا غايب؟

قال صاحبي: ليتنا نُدرِك ما لدى الآخرين من مُنجزات والكفّ عن اعتبار مايأتي من الغرب هو الأفضل. و دعنا نعود إلى خِبرة صاحبكَ العراقي في بريطانيا. فعلى المستوى الإجتماعي، حدّثني صاحبي أنه اصطحب إبنه

الصغير إلى محل حلاقةٍ ودَخل المحل وسلّم على صاحبه قائلاً: هل يستطيع هذا الصغير أن يحصل على دور له للحلاقة؟ فقال له صاحب المحل: هل لديك موعد للحلاقة هذا اليوم؟ فاستغرب صاحبي قائلا: هل قصّ الشعر يحتاج إلى موعد؟ هذه أول مَرّة أسمع بها. فقال له صاحب المحل : نحن هنا نتبع نظاماً مُحدّداً، ولا نريد للناس أن يجلسوا في محل الحلاقة بانتظار دورهم. هذا مَضيَعةٌ للوقت، والوقت له ثمن عندنا.

وحدثني صاحبي الذي ذهب لقضاء سنة التفرّغ العلمي في جامعة اوكسفورد والجامعة لديها قسمٌ خاص لاستقبال الضيوف والقادمين لقضاء فتره في البحث العلمي، إن كانوا من جامعاتهم في بريطانيا أو من

خارجها. قال صاحبي إن السيّدة المسؤولة في قسم الاستقبال قد رحّبت به وأبدت استعدادها للمساعدة في إيجاد السَكن المناسب له ولمن معه. وقد تم ذلك بنجاح و بسرعة. قال صاحبي إن الجامعة تحافظ على عادة اجتماع الشاي في الرابعة عصراً كل يوم، وذلك مناسبة للتعارف بين الضيوف وبين أعضاء هيئة التدريس في الجامعة. قال صديقي إنّه في أول يوم حضرفيه شاي العصر في تلك الجامعة فاجأه أستاذ عرف أن صديقي قد جاء من العراق، وبعد استقباله بالمجاملات المعروفة كان أول سؤال سأله ذلك الأستاذ: ما أخبار المونولوجست الشهير عندكم عزيز علي؟ استغرب صاحبي أن يكون هذا أول سؤال من الأستاذ البريطاني، الذي بدا أنه واسع المعرفة بالشعر العراقي بالعربية الفصيحة وبالعامية كذلك.
إستغرب صاحبي اهتمام الأستاذ البريطاني بمونولوجات عزيز علي وجميعها من النقد الشديد للأوضاع العامة في العراق والبلاد العربية. طلب الأستاذ من صاحبي أن يُساعدَه في ترجمة تلك المونولوجات باللهجة العامية العراقية. كان هذا نوعاً من التحدّي الذي لم يستطِع صاحبي تجاهُله ولو أنه كان يَجده غريباً جدّاً وغير مُتَوقّع. ثم تساءل الأستاذ عن الموسيقى الشعبية في العراق مستغرباً أن يكون يَهود العراق هم أول من بادر إلى تلحين الأغاني العراقية منذ ثلاثينات القرن الماضي فصاعداً. لم يستطِع صاحبي أن يجيب عن جميع أسئلة الأستاذ البريطاني، وبخاصة حول تلحين يهود العراق للأغاني
الشعبية. ولكنّه تذكّر داوود الكويتي، الموسيقي اليهودي البصري وأخاه،وقد ذهب أحدُهما أوكلاهما للعمل في الكويت زمناً وعادا إلى البصرة بلقب الكويتي. وفي ثلاثينات القرن الماضي كان اليهود هم المشتَغلون بالموسيقى والغناء، ربّما لأن بعض العراقيين في ذلك الوقت كانوا يأنفون من الموسيقى والغناء مِهنَةً. ونسمع في راديو إسرائيل ان يهود العراق هم الذين يُديمون اهتمامهم بالموسيقى العراقية والغناء.
وثمّة مسألة أخرى إستغرَبَها صاحبي جدّاً، وكان ذلك في مكتبة الجامعة ذات الطوابق العديدة والأرضيّات الخشبية. كان المفروض أن يحافظ الجميع على الهدوء في الكلام وفي السير على تلك الأرضيات الخشبية. لكن صاحبنا اكتشف وجود أحد "أبناء عمومتنا" يتكلّم بصوت عالٍ و يضرب الأرض بقدميه المُثقلتين ببسطارٍعسكري، له حُدوةٌ حديديةٌ فيكون

سيرُه العنيف سبباً في إصدار أصوات استغاثةٍ من خشب الأرضيات في تلك الجامعة الهادئة العريقة. و في الأسبوع الأول كان صاحبنا في مكتب الاستقبال يستفسر عن مسألةٍ تتعلق بالسكن. فوجد صاحبَنا "إبنَ العُمومَة" غاضباً يُحدِّث السيدة المُحترمة مسؤولةَ الضيافة، ويصيح :لماذا لم تُحضِروا سرير أطفال في السَكن الذي حضّرتموه لنا؟ كيف تتوقعون لطفلي أن ينام وأين ، في هذا المَسكن الذي حضّرتموه لنا؟ إستغرب صاحبُنا هذا الكلام من شخص جامعي وضيف على جامعة محترمة عريقة مثل جامعة أوكسفورد، وهل يتصوّر أن العالم بأجمَعه قد خُلق لخدمة أبناء عمومتنا؟ ولمّا انصرف ذلك الشخص بقيَ صاحبُنا يهدِّىء من رَوع السيدةِ الفاضلة التي كانت لا تُقصِّر في خدمة الضيوف الذين يجب أن لا ينسوا: يا غَريب كُن أديب.